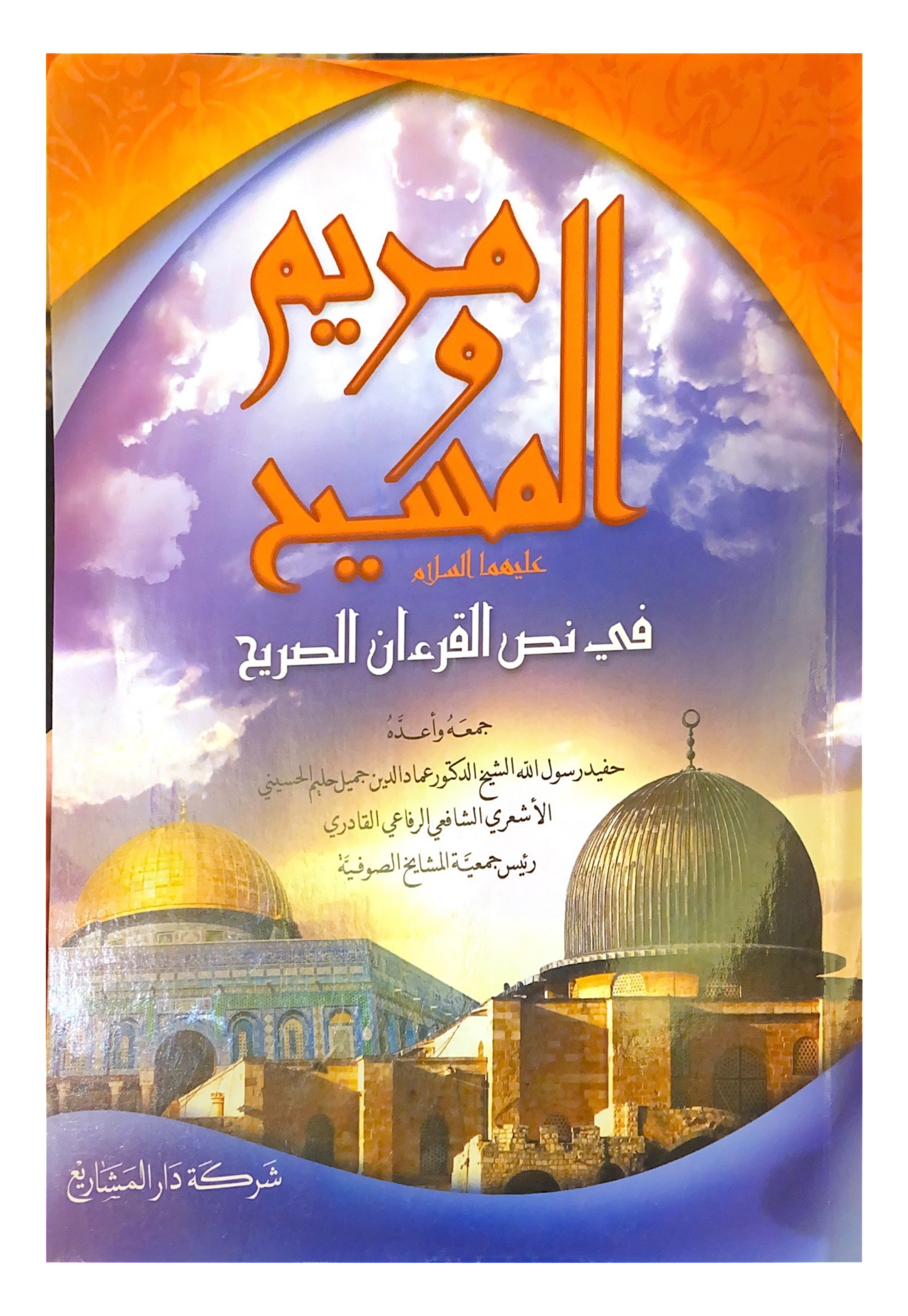


مريم و المسيح
عليهما السلام
في نص القرءان الصريح
جمعَهُ وأعدَّهُ
حفيد رسول الله الشيخ الدكتور عماد الدين جميل حليم الحسيني
الأشعري الشافعي الرفاعي القادري
رئيس جمعيَّة المشايخ الصوفيَّة
شركة دار المشاريع



جمعهُ وأعدّهُ

حفيد رسول الله الشيخ الدكتور عماد الدين جميل حليم الحسيني

الأشعري الشافعي الرفاعي القادري

رئيس جمعيّة المشايخ الصوفيّة

شركة دار المشاريع

التوطئة

الميزان في بيان عقيدة أهل الإيمان

الحمدُ لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلَّم وشرَّف وكرَّم على سيّدنا محمَّد، الحبيبِ المحبوبِ، العظيم الجاهِ، العالي القدرِ طه الأمين، إمامِ المرسلينَ وقائدِ الغرِّ المحجَّلينَ، وعلى ذُرِّيته وأهلِ بيته الميامين المكرّمين، وعلى زوجاته أمَّهات المؤمنين البارّات التقيَّات النقيَّات الطاهرات الصفيَّات، وصحابته الطيِّبين الطاَّهرين، ومن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدّين. أما بعد، فهذه عقيدة كل الأمّة الإسلامية سلفًا وخلفًا، وهي المرجع الذي تُعرض عليه عقائد الناس، فمن خالفها أو كذبها فلا يكون من المسلمين، وهي ميزان الحقّ الذي يكشف زيف الباطل وزيغه، فكان لا بُدَّ من هذا البيان المهم لخصوص الغرض وعموم النّفع؛ وعليه:

اعلم أرشدَنا الله وإياكَ أنّهُ يجبُ على كلِّ مكلفٍ أن يعلمَ أنّ الله عزَّ وجلَّ واحدٌ في ملكِهِ، خلقَ العالمَ بأسرِهِ العلويَ والسفليَ والعرشَ والكرسيَّ، والسمواتِ والأرضَ وما فيهمَا وما بينهُمَا. جميعُ الخلائِقِ مقهورونَ بقدرتِهِ، لا تتحرَكُ ذرةٌ إلا بإذنِهِ، ليس معهُ مُدَبّرٌ في الخلقِ ولا شريكٌ في الملكِ، حيّ قيّومٌ لا تأخذُهُ سنَةٌ ولا نومٌ، عالمُ الغيبِ والشهادةِ لا يخفى عليه شىء في الأرضِ ولا في السماءِ، يعلمُ ما في البرّ، والبحرِ وما تسقطُ من ورقةٍ إلا يعلمُهَا، ولا حبّةٍ في ظلماتِ الأرضِ ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ. أحاطَ بكلِ شىء علمًا وأحصَى كلّ شىء عددًا، فعَّالٌ لما يريد، قادرٌ على ما يشاء، له الملكُ وله الغنى، وله العزُّ والبقاءُ، وله الحكمُ والقضاءُ، وله الأسماءُ الحسنى، لا دافعَ لما قضَى، ولا مانعَ لما أعطَى، يفعلُ في ملكِهِ ما يريدُ، ويحكمُ في خلقِهِ بما يشاءُ، لا يرجو ثوابًا ولا يخافُ عقابًا، ليس عليه حقٌ [يلزمه] ولا عليه حكمٌ، وكلّ نعمةٍ منْهُ فضلٌ وكل نِقمةٍ منه عدلٌ، لا يسأَلُ عمّا يفعَلُ وهم يسألونَ. موجودٌ قبلَ الخلقِ، ليسَ لهُ قبلٌ ولا بعدٌ، ولا فوقٌ

ولا تحتٌ، ولا يمينٌ ولا شمالٌ، ولا أمامٌ ولا خلفٌ، ولا كلٌّ، ولا بعضٌ، ولا يقالُ متىَ كانَ ولا أينَ كانَ ولا كيفَ، كانَ ولا مكانَ، كوَّنَ الأكوانَ، ودبَّرَ الزمانَ، لا يتقَيَّدُ بالزمانِ، ولا يتخصَصُ بالمكانِ، ولا يشغَلُهُ شأنٌ عن شأنٍ، ولا يلحقُهُ وهمٌ ولا يكتنِفُهُ عقلٌ، ولا يتخصَصُ بالذّهنِ، ولا يتمثّلُ في النّفسِ، ولا يُتَصَورُ في الوهمِ، ولا يتكيفُ في العقلِ، لا تلحقُهُ الأوهامُ والأفكارُ، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

نقول جازمين معتقدين صادقين مخلصين، بأنّا نشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، الواحد الأحد، الفرد الصّمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، الذي لم يتخذ صاحبة وليس له والدٌ ولا والدةٌ، الأول القديم الذي لا يُشبِه مخلوقَاته بوجه من الوجوه، لا شبيه ولا نظير له، ولا وزير ولا مُشير له، ولا مُعين ولا ءامِرَ له، ولا ضِدَّ ولا مُغالِبَ ولا مُكْرِهَ له، ولا نِدَّ ولا مِثلَ له، ولا صورةَ ولا أعضاءَ ولا جوارحَ ولا أدواتَ ولا أركانَ له، ولا كيفيةَ ولا كميةَ صغيرةً ولا كبيرةً له فلا حجمَ له، ولا مِقدارَ ولا مِقياسَ ولا مِساحةَ ولا مَسافةَ له، ولا امتدادَ ولا اتّساعَ له، ولا جهةَ ولا حيّزَ له، ولا أينَ ولا مكانَ له، كان الله ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان بلا مكان.

تنزَّه ربّي عن الجلوس والقعود والاستقرار والمحاذاة، الرّحمـٰن على العرش استوى استواءً منزهًا عن المماسة والاعوجاج، خلق العرشَ إظهارًا لقدرته ولم يتَّخِذه مكانًا لذاته، ومن اعتقد أنّ الله جالسٌ على العرش فهو كافر، الرّحمن على العرش استوى كما أخبر لا كما يخطر للبشر، فهو قاهرٌ للعرش مُتَصرِّفٌ فيه كيف يشاء، تنزَّه وتقدَّسَ ربّي عن الحركة والسكون، وعن الاتصالِ والانفصالِ والقُربِ والبُعدِ بالحِسِّ والمسافة، وعن التَّحوُّل والزّوال والانتقال، جلَّ ربّي لا تُحيط به الأوهامُ ولا الظُّنونُ ولا الأفهامُ، لا فِكرةَ في الرَّبِّ، لا إلـٰه إلا هو، تقدَّسَ عن كلِّ صفاتِ المخلوقينَ وسِماتِ المحدَثينَ، لا يَمَسُّ ولا يُمَسُّ ولا يُحَسُّ ولا يُجَسُّ، لا يُعرَفُ بالحواسِّ ولا يُقاسُ بالناس، نُوَحِّدُه ولا نُبَعِّضُه، ليس جسمًا

ولا يتَّصِفُ بصفاتِ الأجسام، فالمجسّم كافر وإن صام وصلّى صورةً، فالله ليس شبحًا وليس شخصًا، وليس جوهرًا وليس عَرَضًا، لا تحُلُّ فيه الأعراضُ، ليس مؤلّفًا ولا مُرَكّبًا، ليس بذي أبعاضٍ ولا أجزاءٍ، ليس ضوءًا وليس ظلامًا، ليس ماءً وليس غَيمًا وليس هواءً وليس نارًا، وليس روحًا ولا له روحٌ، لا اجتماعَ له ولا افتراقَ، لا تجري عليه الآفاتُ ولا تأخذُه السِّنَاتُ، منزّهٌ عن الطُّولِ والعَرْضِ والعُمْقِ والسَّمْكِ والتركيبِ والتأليفِ والألوانِ، لا يحُلُّ فيه شيء، ولا يَنْحَلُّ منه شيء، ولا يحُلُّ هو في شيء، لأنه ليس كمثله شيء، فمن زعم أنّ الله في شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرك، إذ لو كان في شيء لكان محصورًا، ولو كان من شيء لكان مُحدَثًا أي مخلوقًا، ولو كان على شيء لكان محمولًا، وهو معكم بعلمه أينما كنتم لا تخفى عليه خافية، وهو أعلم بكم منكم، وليس كالهواء مخالطًا لكم.

وكلَّم الله موسى تكليمًا، وكلامُه كلامٌ واحدٌ لا يتبعّض ولا يتعدّد ليس حرفًا ولا صوتًا ولا لغةً، ليس مُبتَدأً ولا مُختَتَمًا، ولا يتخلله انقطاع، أزليٌّ أبديٌّ ليس ككلام المخلوقين، فهو ليس بفم ولا لسان ولا شفاه ولا مخارج حروف ولا انسلال هواء ولا اصطكاك أجرام، هو صفةٌ من صفاتِه، وصفاتُه أزليةٌ أبديةٌ كذاتِه، وصفاته لا تتغيّر لأنَّ التغيُّرَ أكبرُ علاماتِ الحدوثِ، وحدوثُ الصّفةِ يستلزمُ حدوثَ الذّاتِ، والله منزَّهٌ عن كل ذلك، مهما تصورت ببالك فالله لا يشبه ذلك، فصونوا عقائدَكم من التَّمَسُّكِ بظاهِرِ ما تشابه من الكتابِ والسنَّةِ فإنَّ ذلك من أصولِ الكفر، ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾، ومن زعم أنّ إلـٰهنا محدودٌ فقد جَهِلَ الخالقَ المعبودَ، فالله تعالى ليس بقدر العرش ولا أوسع منه ولا أصغر، ولا تصِحُّ العبادة إلا بعد معرفة المعبود، وتعالى ربّنا عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، ولا تحويه الجهات السّت كسائر المبتدعات، ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد خرج من الإسلام وكفر.

﴿ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ

شَىْءٍ ﴾، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وكل ما دخل في الوجود من الأجسام والأجرام والأعمال والحركات والسّكنات والنّوايا والخواطر وحياة وموت وصحّة ومرض ولذّة وألم وفرح وحزن وانزعاج وانبساط وحرارة وبرودة وليونة وخشونة وحلاوة ومرارة وإيمانٍ وكفر وطاعة ومعصية وفوز وخسران وتوفيق وخذلان وتحركات وسكنات الإنس والجنّ والملائكة والبهائم وقطرات المياه والبحار والأنهار والآبار وأوراق الشجر وحبّات الرّمال والحصى في السّهول والجبال والقفار فهو بخلق الله بتقديره وعلمه الأزلي وأنّ الإنس والجنّ والملائكة والبهائم لا يخلقون شيئًا من أعمالهم وهم وأعمالهم خلق لله، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾، ومن كذَّبَ بالقدر فقد كفر.

ونشهد أنّ سَيِّدَنا ونبيَّنا وعظيمنا وقائدَنا وقُرَّة أعيننا وغوثنا ووسيلتنا ومعلمنا وهادينا ومرشدنا وشفيعنا محمَّدًا، عبدُه ورسولُه، وصفيُّه وحبيبُه وخليلُه، مَن أرسَلَه الله رحمةً للعالمين، جاءنا بدين الإسلام ككُلِّ الأنبياء والمرسلين، هاديًا ومُبَشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه قمرًا وهَّاجًا وسِراجًا مُنيرًا، فبلَّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمّة وجاهد في الله حقّ جهاده حتى أتاه اليقين، فعَلَّمَ وأرشدَ ونصحَ وهدى إلى طريق الحقِّ والجنَّة، صلّى الله عليه وعلى كلِّ رسولٍ أرسَلَه، ورضي الله عن ساداتنا وأئمتنا وقدوتنا وملاذنا أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وسائر العشرة المبشّرين بالجنّة الأتقياء البررة وعن أمّهات المؤمنين زوجات النّبي الطاهرات النّقيات المبرّءات، وعن أهل البيت الأصفياء الأجلاء وعن سائر الأولياء وعباد الله الصالحين.

ولله الفضل والمِنَّة أن هدانا لهذا الحقّ الذي عليه الأشاعرة والماتريدية وكل الأمّة الإسلامية، والحمد لله ربّ العالمين.

سبب التأليف

الحمد لله رب العالمين الرحمـٰن الرحيم مالك يوم الدين والصلاة والسلام على حبيب رب العالمين محمدٍ المصطفى وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين إبراهيم وموسى وعيسى وعلى من بينهم من النبيين المكرمين أفضل الخلق مرتبتًا وشرفًا ومَن على ءاثارهم اقتفى وعلى ءالهم أهل الصدق والوفى وعلى أصحابهم الحُنفى.

أما بعد يقول الله سبحانه وتعالى في القرءان الكريم في مدح أنبيائِهِ عليهم السلام: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فتعظيمًا لشأن وأمر نبي الله عيسى المسيح وأمِهِ السيدة مريم بنت عمران الطاهرة البتول عليهما السلام وإظهارًا لبعض ما ورد في سيرتهما الطاهرة وتبرئةً لهما مما افتريَ وكُذِبَ عليهما كان سببُ هذا السفر الجليل وحيث إنَّ نبي الله عيسى وأمه الولية ذِكرُهُما منتشرٌ وذائعٌ شائعٌ في الأفاق كثُرت الأباطيل وعمَّت الأراجيف وانتشرت الإسرائيليات أي افتراءات اليهود عليهما فكان لا بد لنا من القيام بهذا الواجب من إظهار الحق وذكر ما يليقُ بهما من أنهما كانا على الإسلام والصدقِ والعفةِ والأمانةِ والنزاهةِ والتقى والنقى وحسن الخلقِ والورع والعبادةِ والزهدِ وأنهما داعيانِ إلى الإسلام والإيمان والتوحيد والتنزيه وأداء الواجبات واجتناب المحرمات والتمسكِ والتحلي بمعالي الأمور والتخلي عن الأعمال الرديةِ السيئةِ وأنهما لم يدّعيا الألوهية ولا زعما أن الإلـٰـه حلَّ فيهما حاشاهما بل هما عبدانِ لله عز وجل قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [سورة المائدة/ ٧٥] وقال تعالى إخبارًا عن عيسى: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [سورة مريم/ ٣٠] والآياتُ في ذلك كثيرةٌ جدًا.

النبوة والرسالة

قال القونوي ما نصه[1]: «والفرق بين النبي والرسول أن الرسول من بعثه الله تعالى إلى قوم وأنزل عليه كتابًا، أو لم ينزل لكن أمره بحكم لم يكن ذلك الحكم في شرع الرسول الذي كان قبله، والنبي من لم ينزل عليه كتاب ولم يأمُرْه بحكم جديد بل أمره بأن يدعو الناس إلى شرع الرسول الذي كان قبله، وقيل: الرسول من نزل عليه جبريل عليه السلام وأمرَه بتبليغ رسالة الله تعالى إلى الناس، والنبيُّ من لم يَنزل عليه جبريل بل سمع صوتًا من مَلَكٍ أو رأى في المنام إنك نبيٌّ فبلغ رسالة الله تعالى إلى الناس، وقيل: الرسول الشارعُ والنبيُّ الحافظ شريعة غيره، والرسول يعمُّ البشر والملك بخلاف النبي[2]، وقيل إن الرسول أخصّ من النبي، لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا» اهـ. والمراد بالشارع في التفسير الثالث من شرع حكمًا جديدًا. وهذه التعريفات الثلاثة للرسول والنبي المعتمد منها الأول والثالث، وأما ما شاع في بعض التآليف من أن النبيَّ هو الذي أُوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول من أوحيَ إليه بشرع وأمر بتبليغه فغير صحيح، لأنه لا معنى للنبيّ إلا أن يكون مأمورًا بالتبليغ، لأن النبيّ لا ينبّأ لنفسه فقط، فليحذر هذا التعريف.

وهذا الفرق الفاسد مذكور في تفسير الجلالين جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي[3].

ثم إرسال الرسل ليس واجبًا على الله بل الله تبارك وتعالى متكرم بذلك، ولو لم يرسِل لم يكن ذلك نقصًا على الله تعالى، وقالت البراهمة وهي من الفرق

---

(١) القلائد شرح العقائد (ص/ ٨٣)، مخطوط.

(٢) وقد نصّ على هذا الإمامُ أبو الحسن الأشعريّ.

(٣) وهذا موجود أيضًا في فتح الباري وكثير من مؤلفات المتأخرين حتى في كتب النحو، مثل مُلحة الإعراب فلها شرح يقال له «كشف النقاب»، فيه هذا الشرح أيضًا.

الضالة وبعضُ غيرهم: إرسال الرسل محال، قالوا: لأن الرسول لو أتى بما اقتضاه العقل فبالعقل عما أتى به غُنيَةٌ، فيكون خاليًا عن الجدوى فيكون عبثًا وهو لا يليق بالحكيم، ولو أتى بما يأباه العقل فهو مردود، لأن العقل حجة الله تعالى إجماعًا فلا تتناقض حججه، فما يأباه العقل يكون باطلًا اهـ. قال أهل الحق: الأنبياء يأتون بما قَصُر العقل عن معرفته لأن الرسالة سفارة بين الله تعالى وبين ذوي الألباب من خليقته، ليزيل بها علَلَهُم في ما قصرت عنه عقولهم، وهذا لأن العقل إن وقف على الواجب والممتنع العقليين لا بُدّ وأن يتوقف في الجائز، إذ كِلا طرفي الجواز يتساويان في قضية العقل، وربما تتعلق به العاقبة الذميمة وليس في العقول إمكان الوقوف على ذلك، فلا بد من البيان ممن له الاطلاع على العواقب ليميز بالعقل فيُقبَلَ على ما له العاقبة الحميدة ويُعرِضَ عمّا له العاقبة الذميمة. ثم إذا ادّعى واحد الرسالة في زمان جوازها وهو قبل مبعث النبي ﷺ لا يجب قبوله بدون معجزة، والمعجزة في اللغة مشتقة من العجز، والمراد ما يُظهرُ عجز الخلق عن معارضته، والهاء في المعجزة للمبالغة لا للتأنيث كالعَلّامة والنسَّابة، وتعريف المعجزة في الاصطلاح: أمر إلهي خارق للعادة في دار التكليف لإظهار صدق مدعي النبوة مع عجز من يُنازعه عن معارضته بمثل ذلك الأمر الإلـهي، وإنما قُيدَ بدار التكليف وهي الدنيا ليخرج الخارق للعادة في العُقبى، وبإظهار صدقه لأن الناقض لو ظهر لإظهار كذبه بأن قال: دليل صحة نبوّتي شهادة هذا الحجر لي بذلك فأنطق الله الحجرَ بتكذيبه لا يكون معجزة بل يكون دليل كذبه في دعواه النبوة، إذ ظهور الناقض للعادة على يد مدعي الألوهية جائز لظهور أمارات الحدث فيه، وكذا على يد الوليّ جائز عندنا كرامة له، وهو لا يدعي النبوة ولو ادّعاها لكفر، وبالعجز عن المعارضة بالمثل ما يمكن معارضته إذ لو عارضه بمثله لَدَلّ على صدق مُكَذّبِهِ فيتعارضان فيسقطان أي كالبيّنتين المتناقضتين.

فإن قيل: لم لا يجوز إظهار المعجزة على يد المتنبئ إضلالًا للخلق، ويجوز منه تعالى خلق الضلالة فيهم وترك ما فيه صلاحهم عندكم قلنا: لأنا نقول لو ظهرت

على يد الكاذب لكان تكليف الخلق بتصديق الأنبياء تكليفًا بما لا يطاق، وإنه غير جائز وغير ثابت بالنص والإجماع. ووجه دلالة المعجزة أنه لما ادّعى الرسالة وقال: إنَّ صِدقَ دعواي أن الله تعالى أرسلني لفعل كذا ففعل الله تعالى ذلك كان منه تصديقًا في دعواه الرسالة كقوله عقب دعواه: صدقتَ، إذ التصديق بالفعل كالتصديق بالقول، فيستحيل من الحكيم تعالى تصديق الكاذب.

ثم إن نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله ﷺ لأنه ادّعى النبوة وهو معلوم بالتواتر، وظهرت المعجزات على يديه كانشقاق القمر ليلة البدر، وانجذاب الشجر إليه مرارًا، وتسليم الحجر عليه، ونبع الماء من بين أصابعه، وحنين الجذع إليه حين انتقل إلى المنبر وكان يستند إليه عندما يخطب، فالتزمه نبي الله حتى سكن، وسقيه الكثير من الناس القليل من الماء حتى كفاهم، ومن معجزاته القرءان، وهو أظهرها وأقواها وهو من أعجب الآيات وأبين الدلالات، إذ هو ءاية حسية عقلية باقية إلى يوم القيامة، منتشر في الأطراف، مبثوث في الآفاق، بخلاف غيره من المعجزات فإنها تختص بزمان أو مكان، وقد بَايَنَ نظمُه العجيبُ وجوهَ النظم، وتحدى به جميع الأنام وقرعهم بالإفحام، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من مصاقع الخطباء، ولم ينهض بمقدار أقصر سورة منه ناهض من فحول الشعراء البلغاء مع أنهم أكثر من حصى البطحاء ورمال الدهناء[1]، فدلّ عجزهم على أنه كان معجزة من الله تعالى لتصديق نبيه، ولا يُظَنّ بهم وهم أكثر خليقة الله تعالى حقدًا وعصبية أنهم امتنعوا عن المعارضة مع القدرة، وقد خاطروا بمهجهم وبذلوا أموالهم وتحملوا المشاقّ الشديدة، والمتاعب الصعبة: من جرّ العساكر، وتجريد البواتر، وحمل الرماح الخواطر والخوض في المهالك، وتقحم غمرات

(١) الدهناء: أرض كثيرة الرمل في الجزيرة العربية. وليس المراد من قوله أكثر من حصى البطحاء ورمال الدهناء حقيقة معنى اللفظ من حيث اللغة، لأن حصى البطحاء أكثر من عدد الشعراء لو عدت، ومثل هذا لا يكون كذبًا لأنه معروف في اللغة كما يقال: «زرتك مائة مرة» والقصد أنه زاره كثيرًا وليس المراد التحديد، فلا يكون ذلك كذبًا.

المعارك لإطفاء نوره، وقد تحدى به أولًا وأظهر السيف ءاخرًا فلم يعارضوه إلا بالسيف وحده، ولو استطاعوا معارضته في أقصر سورة منه لظهرت نصرتهم وكُفُوا مؤنة قتاله، فبان أنهم امتنعوا عن ذلك عجزًا واضطرارًا لا اختيارًا وإيثارًا. ثم إعجاز القرءان لكمال فصاحته ونهاية بلاغته، وقيل في ذلك عبارات أخرى.

ولما ثبت صدق الرسول ﷺ وعصمته في ما يبلغه عن الله تعالى وجب التصديق بكل ما أخبر من أمور الغيب جملة وتفصيلًا، فإن كان مما يعلم تفصيله وجب اعتقاده، فإن لم يعلم تفصيله وجب أن يؤمن به جملة، ويرد تأويله إلى الله تعالى ورسوله ولمن اختصه الله عزّ وجلّ بالاطلاع على ذلك.

الفرق بين النبوة والولاية

قال الإمام الحافظ أحمد بن سلامة أبو جعفر الطحاوي رحمه الله: ولا نُفضِّل أحدًا مِن الأولياءِ على أحدٍ مِن الأنبياءِ عليهمُ السّلامُ، ونقولُ نبيٌّ واحدٌ أفضلُ مِن جميع الأولياءِ.

وقال الشيخ الإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن يوسف الهرري الحبشي رحمه الله في كتابه إظهار العقيدة السنية بشرح العقيدة الطحاوية[1]: «في هذا ردٌّ على من قال بتفضيل بعض الأئمة على الأنبياء، لأن ذلك باطل، لأن الولي إنما يستحق الولاية باتباعه النبي واقتدائه به في طاعة الله تعالى على شريعته، فيستحيل أن يكون أفضل منه أو مثله، قال تعالى بعد ذكر عدد من الأنبياء ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنعام/ ٨٦]، ولا يجوز تأويل الآية بأن المراد عَالَمُو زمان أولئك المذكورين، لأن هذا تأويل بلا دليل وهو ممنوع.

فائدة: قال الحافظ في الفتح[2] نقلاً عن القرطبي في قصة موسى مع الخضر

---

(١) انظر كتاب «إظهار العقيدة السنية بشرح العقيدة الطحاوية» (ص/ ٧٦).

(٢) فتح الباري (١/ ٢٢١).

عليهما السلام ما نصه: «ولننبه هنا على مغلطتين:

الأولى: وقع لبعض الجهلة أن الخضر أفضل من موسى تمسكًا بهذه القصة وبما اشتملت عليه، وهذا إنما يصدر ممن قصر نظره على هذه القصَّة، ولم ينظر في ما خصّ الله به موسى عليه السلام من الرسالة وسماع كلام الله وإعطائه التوراة فيها عِلْمُ كل شيء، وأن أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته ومخاطبون بحكم نبوته حتى عيسى. وأدلة ذلك في القرءان كثيرة، ويكفي من ذلك قوله تعالى ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [سورة الأعراف/ ١٤٤]، وسيأتي في أحاديث الأنبياء من فضائل موسى ما فيه كفاية. قال: والخضر وإن كان نبيًّا فليس برسول باتفاق[1]، والرسول أفضل من نبي ليس برسول، ولو تنزلنا على أنه رسول فرسالة موسى أعظم وأمته أكثر، فهو أفضل، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل وموسى أفضلهم. وإن قلنا إن الخضر ليس بنبي بل ولي فالنبي أفضل من الولي وهو أمر مقطوع به عقلًا ونقلًا، والصائر إلى خلافه كافر لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة قال: وإنما كانت قصة الخضر مع موسى امتحانًا لموسى ليعتبر.

الثانية: ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة، فقالوا: إنه يستفاد من قصة موسى والخضر أن الأَحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأغبياء، وأما الأَولياء والخواص فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عن الأغيار، فتنجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات ويعلمون الأَحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما ينجلي له من

---

(١) وبعض العلماء قال إنه رسول والمعتمد أنه نبي.

تلك العلوم عما كان عند موسى، ويؤيده الحديث المشهور[1]: «**استفت قلبك، وإن أفتاك الناس وأفتوك**»[2]. قال القرطبي: وهذا القول زندقة وكفر، لأنه إنكار لما علم من الشرائع، فإن الله قد أجرى سنته وأنفذ كلمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه المبيّنين لشرائعه وأحكامه كما قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ [سورة الحج/ ٧٥]، وقال ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ [سورة الأنعام/ ١٢٤]، وأمر بطاعتهم في كل ما جاؤوا به وحث على طاعتهم والتمسك بما أمروا به فإن فيه الهدى، وقد حصل العلم اليقين[3] وإجماع السلف على ذلك، فمن ادعى أن هناك طريقًا أخرى يعرف بها أمره ونهيه غير الطرق التي جاءت بها الرسل يستغنى بها عن الرسل فهو كافر يقتل ولا يستتاب[4]، وهي دعوى تستلزم إثبات نبوة بعد نبيّنا، لأنه من قال إنه يأخذ عن قلبه لأن الذي يقع فيه هو حكم الله وإنه يعمل بمقتضاه من غير حاجة منه إلى كتاب ولا سنة فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة، كما قال نبينا ﷺ: «**إن روح القدس نفث في رُوعي**»[5] ومعناه جبريل ورُوعي أي قلبي.

قال: وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال: أنا لا ءاخذ عن الموتى وإنما ءاخذ عن الحي الذي لا يموت. وكذا قال ءاخر: أنا ءاخذ عن قلبي من ربي، وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع. نسأل الله الهداية والتوفيق. وقال غيره: من استدل بقصة الخضر على أن الولي يجوز أن يطلع من خفايا الأمور على ما يخالف الشريعة ويجوز

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٢٢٧ - ٢٢٨)، والدارمي في سننه (٢/ ٢٤٥ - ٢٤٦).

(٢) هذا الحديث «استفت قلبك» هو للمجتهد، فالمجتهد هو الذي يأخذ باجتهاده ولا يقلّد مجتهدًا غيره في ما خالف فيه اجتهادُه اجتهادَه.

(٣) لأن الأحكام الدينية ومعرفة شريعة الله تكون بواسطة الأنبياء.

(٤) هذا عند المالكية وعند بعضهم استتابته واجبة. فعند المالكية اعتبروا هذا زنديقًا فلو تشهد لا يؤمَن أن ينخلع عن عقيدته عن حاله. فعندهم بعض من نطق بالكفر يستتاب وبعض لا يستتاب.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٨٥)، وابن عبد البر في التمهيد (١/ ٢٨٤).

له فعله فقد ضلّ، وليس ما تمسك به صحيحًا، فإن الذي فعله الخضر ليس في شيء منه ما يناقض الشرع، فإن نقض لوحٍ من ألواح السفينة لدَفع الظالم عن غصبها ثم إذا تركها أعيد اللوح جائز شرعًا وعقلًا، ولكن مبادرة موسى للإنكار بحسب الظاهر، وقد وقع ذلك واضحًا في رواية أبي إسحق التي أخرجها مسلم[1] ولفظه: «**فإذا جاء الذي يسخرها فوجدها منخرقة فتجاوزها فأصلحوها بخشبة**» يستفاد منه وجوب التأني عن الإنكار في المحتملات، وأما قتله الغلام فلعله كان في تلك الشريعة[2]، وأما إقامة الجدار فمن باب مقابلة الإساءة بالإحسان والله أعلم» انتهى.

بيان أن الولي لا ينقلب عدوًّا لله

قال الله تعالى في القرءان الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة الأنبياء] وقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة يونس]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة فصلت]، وقال تقدَّست أسماؤه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الفضائل: باب من فضائل الخضر عليه السلام.

(٢) معناه يحتمل أنه كان في ذلك الوقت جائزًا قتله ولو كان دون البلوغ إن كان يحث أهله على الكفر.

﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [سورة النساء] فهذه الآيات دلالات واضحات على أن الولي لا خوف عليه في الآخرة من العذاب ولا من الهوان ولا من دخول النار بل له ما ورد في هذه الآيات من دخول الجنة ومن تبشير الملائكة له برحمة الله ورضوانه وهذا معناه أن الإنسان المؤمن المسلم الذي أدى الواجبات واجتنب المحرمات وأكثر من نوافل الطاعات صار وليًّا لله ومن صار وليًّا لله صار حبيبًا له ومن صار حبيبًا لله لا ينقلب بغيضًا لله بعد ذلك والله لا يعذب أحبابه ولا يدخل أولياءَه النار كما وعد ومستحيل شرعًا وعقلًا أن يخلف الله وعده، ومن دخل في الولاية لا تسلب منه بعد ذلك ولا يخرج منها بل يموت عليها ويلقى في الآخرة ما ورد في الآيات التي أوردناها وغيرها من ءايات القرءان وأحاديث رسول الله ﷺ. وليس صحيحًا أن الولي بعد دخوله في الولاية قد ينقلب وتسلب منه الولاية ويموت على حالة سيئة فهذا خلاف قول جمهور العلماء الذي هو المعتمد وعليه المعول.

ما يجب للأنبياء وما يستحيل عليهم

يجب للأنبياء عليهم السلام الصدق، فيستحيل عليهم الكذب لأن الكذب ينافي منصب النبوة، ويجب لهم الأمانة فيستحيل عليهم الخيانة.

ويجب لهم الفطانة فيستحيل عليهم الغباوة والبلادة أي ضعف الفهم، لأن الأنبياء عليهم السلام أرسلوا ليبلغوا الناس مصالح ءاخرتهم ودنياهم، والبلادة تنافي ذلك.

وكذلك يستحيل على الأنبياء الخسّة كسرقة حبة عنب واختلاس النظر إلى الأجنبية بشهوة، وكذلك يستحيل عليهم السفاهة كتبذير المال أي صرفه في الحرام.

عصمة الأنبياء

اتفق المسلمون على أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكفر قبل النبوة وبعدها، وكذلك من كبائر الذنوب كالزنى وأكل الربا وغير ذلك، وأما الذنوب الصغيرة فما كان من صغائر الخسة والدناءة فهم معصومون منها أيضًا قبل النبوة وبعدها. وأما الصغائر التي هي غير صغائر الخسة والدناءة فقد ذهب أكثر العلماء ومنهم الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه إلى أنه تجوز عليهم كالمعصية التي حصلت من ءادم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [سورة طه/ ١٢١]، ولكنهم يُنَبَّهون فورًا فيتوبون قبل أن يقتدي بهم فيها غيرهم، وهذا هو القول الصواب.

فصل في تبرئة الأنبياء مما لا يليق بهم

يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة الأنعام].

الصلاة والسلام على أنبياء الله من سيدنا ءادم إلى سيدنا محمد الذين جعلهم الله تعالى أفضل الخلق بدليل قوله تعالى ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنعام/ ٨٦].

واعلم أن النبوة اشتقاقها من النبأ أي الخبر لأن النبوة إخبار عن الله، أو اشتقاقها من النبوة أي الرفعة، فالأنبياء درجاتهم مرتفعة عالية. ويجب اعتقاد أن كل نبي من أنبياء الله يجب أن يكون متصفًا بالصدق والأمانة والفطانة.

فأنبياء الله أحباب الله يستحيل عليهم الكذب لأن ذلك نقص ينافي منصب النبوة. ويستحيل عليهم الخيانة وهي ضد الأمانة، ويستحيل عليهم التلبس بالرذالة أيًا كانت كاختلاس النظر إلى المرأة الأجنبية بشهوة. ويستحيل عليهم السفاهة كالتلفظ بألفاظ شنيعة. ويستحيل عليهم البلادة وهي ضعف الفهم، والبليد هو الذي لا يفهم الكلام من المرة الأولى إلا بعد أن يكرر عليه عدة مرات فهذا كلّه يستحيل في حق الأنبياء، فما من نبي خائن أو رذيل أو سفيه أو بليد الذهن، والله تعالى حفظهم من الكفر قبل النبوة وبعدها وحفظهم من الكبائر كالزنى وحفظهم من صغائر الخسة كسرقة حبة عنب.

وليعلم أن كل الأنبياء فصحاء فليس فيهم أَرَتُّ وهو الذي يكون في لسانه عقدة وحبسة ويعجل في كلامه فلا يطاوعه لسانه، وليس فيهم تأتاء ولا أَلْثَغُ، والأَلْثَغُ الذي يصيّر الراء غينًا أو لامًا والسين ثاء مثلًا.

ويستحيل على أنبياء الله سبق اللسان في الشرعيات والعاديات لأنه لو جاز عليهم لارتفعت الثقة في صحة ما يقولونه، ولقال قائل لما يبلغه كلام عن نبيّ (ما يدرينا أنه يكون قاله على وجه سبق اللسان) فلا يحصل من النبي أن يصدر منه كلام غير الذي أراد قوله، وسبق اللسان هو أن يتكلم الإنسان بشيء من غير إرادة بل يجري على لسانه ولم يقصد أن يقوله بالمرة.

ويستحيل عليهم أيضًا الجنون وتأثير السحر في عقولهم، فلا يجوز أن يعتقد أن الرسول قد أثر السحر في عقله.

وأنبياء الله كلهم كانوا ذوي حسن وجمال ولا يجوز عليهم المرض الذي ينفر الناس منهم، فقد قال رسول الله ﷺ: «**ما بعث الله نبيًا إلا حسن الوجه حسن الصوت وإن نبيكم أحسنهم وجهًا وأحسنهم صوتًا**» رواه الترمذي.

فنبي الله أيوب لم يُصب بمرض منفر إنما ابتلاه الله بلاء شديدًا استمر ثمانية عشر عامًا وفقد ماله وأهله ثم عافاه الله وأغناه ورزقه الكثير من الأولاد، وأما

ما يرويه بعض الناس من أن الدود أكل من جسمه وكان الدود يتساقط فيأخذ الدودة ويعيدها إلى مكانها من جسمه ويقول: يا مخلوقة ربي كُلِي من الرزق الذي رزقك فهو ضلال وكفر والعياذ بالله.

وأنبياء الله عليهم السلام كلهم أصحاب خلقة سوية، لم يكن فيهم ذو عاهة في خلقته ولم يكن فيهم أعرج ولا كسيح ولا أسود ولا أعمى، أما سيدنا يعقوب عليه السّلام فمن شدة بكائه حزنًا على سيدنا يوسف ابيضت عيناه، فقد بكى بكاء شديدًا حتى ابيضت عيناه ثم رد الله تعالى عليه بصره لما أرسل يوسف بقميصه من مصر إلى البلدة التي فيها أبوه فشم يعقوب ريح يوسف في هذا القميص، فالله تعالى جعله يشم ريح يوسف فارتدَّ بصيرًا.

وكذلك لا يجوز القول إن ءادم عليه السلام كان متوحشًا شبيهًا بالقرد، فمن قال ذلك فهو ليس بمسلم.

ومن جملة الافتراءات التي يجب الحذر منها قول البعض إن سيدنا داود عليه السلام أرسل قائد جيشه إلى معركة ليموت فيها ليتزوج داود امرأة هذا القائد، فهذا فاسد مفترى لا يليق بنبي من أنبياء الله.

والله تعالى صان الأنبياء عن المنفرات كأن تكون أسماؤهم من الأسماء القبيحة الشنيعة، الله تعالى عصم الأنبياء من أن تكون أسماؤهم خبيثة أو مشتقة من خبيث أو يشتق منها خبيث، فلا يجوز أن يقال إن فعل اللواط مشتق من اسم نبي الله لوط، ثم لفظ اللواط كان قبل قوم لوط على أنّهم هم أول من فعل تلك الفعلة الشنيعة من بين البشر، أما اللفظ فكان موضوعًا بين المتكلمين باللغة العربية قبل لوط وهم قوم عاد.

ولقد كان قوم لوط من قساوة قلوبهم وفساد أخلاقهم يجاهرون بفعل فاحشة اللواط ولا يستترون ولا يستحون، وقد بعث الله تعالى نبيه لوطًا إليهم فدعاهم إلى دين الإسلام وعبادة الله وحده ونهاهم عن تعاطي المحرمات والمنكرات وتلك

الأفاعيل المستقبحة، ولكنهم استمروا على كفرهم وإشراكهم وتمادوا في ضلالهم وطغيانهم وفي المجاهرة بفعل اللواط فسأل لوط عليه السلام ربه النصرة عليهم، قال تعالى حكاية عن نبيه لوط: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة العنكبوت/ ٣٠].

فأرسل الله عز وجل إلى قوم لوط ملائكة كرامًا لإهلاكهم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ليقلبوا قراهم عاليها سافلها وينزلوا العذاب بهم، فجاؤوا إلى سيدنا لوط عليه السلام بصور شبان جميلي الصورة اختبارًا من الله لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم، ولم يخبروا لوطًا في البداية بحقيقتهم، فظن نبي الله لوط أنهم ضيوف جاؤوا يستضيفونه فأشفق عليهم وخاف من قومه أن يعتدوا عليهم، وحصل أن خرجت امرأته وكانت كافرة خبيثة تتبع هوى قومها فأخبرت قومها وقالت لهم إن في بيت لوط رجالًا ما رأيت مثل وجوههم قط، وما أن سمع قوم لوط الخبر حتى أقبلوا مسرعين إلى بيته عليه السلام يريدون الاعتداء على ضيوفه وكان قد أغلق بابه، وأخذ يناظر ويحاور قومه من وراء الباب وهم يعالجون الباب ليفتحوه فلما رأى الملائكة ما يلقى نبي الله لوط عليه السلام من كرب شديد أخبروه بحقيقتهم وأنهم ليسوا بشرًا وإنما هم ملائكة ورسل من الله، قدموا وجاؤوا لإهلاك هذه القرية بأمر من الله لأن أهلها كانوا ظالمين بكفرهم وفسادهم.

واستأذن جبريل عليه السلام ربّه في عقوبتهم فأذن له فخرج عليه السلام إليهم وضرب وجوههم بطرف جناحه فطمست أعينهم، فانصرفوا يتحسسون الحيطان ويتوعدون ويهددون نبي الله لوطًا، عند ذلك سأل نبي الله لوط الملائكة متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح، فقال: لو أهلكتموهم الآن، فقالوا له ما أخبر الله عنه ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [سورة هود/ ٨١].

وأصاب قوم لوط من أمر الله ما لا يرد من العذاب الشديد، يقول الله عز وجل ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن

سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [سورة هود/ ٨٢] أدخل جبريل عليه السلام ريشة واحدة من أجنحته في قراهم ومدنهم وكانت أربعة أو خمسة واقتلعها من أصلها بمن فيها من قوم لوط الكافرين فرفع الجميع حتى بلغ بهم عنان السماء حتى سمع الملائكة الذين في السماء الأولى أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، ردها مقلوبة بمشيئة الله وقدرته، أما لوط عليه السلام فقد خرج ليلًا قبل طلوع الشمس، وأمّا امرأته الكافرة فقد هلكت مع الهالكين.

بيان جواز الغلط والخطأ والذنوب على الأولياء

يجب الاعتقاد بأن العصمة الكاملة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وليست للأولياء بل الولي من أولياء البشر أو الجن يجوز عليه أن يقع في المعصية لكنه معصوم محفوظ من الوقوع في الكفر لأنه صار وليًّا حقيقيًا ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أهل الحق أن الولي ولو كان من أكابر الأولياء قد يقع في الكبيرة لكنه لا يسترسل فيها ولا يبقى عليها بل يتوب ويرجع ولذلك أمثلة مما حصل من بعض كبار أولياء الصحابة فكذلك الصحابة قد يحصل من بعضهم ما هو خطأ أو غلط أو ذنب على أن الصحابة ليس كلهم من الأولياء ولا كلهم من المجتهدين ولذلك قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي ﷺ**» اهـ. قال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون اهـ. ونقل الحافظ الزبيدي عن الحافظ العراقي تحسينه اهـ. وقال الإمام مالك رضي الله عنه «كل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ» اهـ. وكان عند قبر النبي ﷺ.

وهذا الصّديق أبو بكر رضي الله عنه أفضل أولياء البشر بعد الأنبياء، لمّا عبّر الرؤيا أمام النبي ﷺ، قال له النبي ﷺ: «**أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا**» اهـ. رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وأخرج عبد الرزاق من طريق أبي عبد الرحمٰن السلمي قال: «قال عمر: لا تغالوا في مهور النساء، فقالت امرأة ليس ذلك لك يا عمر، إن الله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾، فقال عمر: امرأة خاصمت عمر فخصمته» اهـ. وأخرجه الزبير ابن بكار من وجه ءاخر منقطع «فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ» اهـ. وأخرجه أبو يعلى من وجه ءاخر عن مسروق عن عمر فذكره متصلًا مطولًا، وأصل قول عمر «لا تغالوا في صدقات النساء» عند أصحاب السنن وصححه ابن حبان والحاكم، لكن ليس فيه قصة المرأة.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن محمد بن يحيى بن حبان أن ابن محيريز القرشي ثم الجمحي أخبره وكان بالشام وكان قد أدرك معاوية: فأخبره أن المخدجي رجلًا من بني كنانة أخبره أن رجلًا من الأنصار كان بالشام يكنى أبا محمد أخبره أن الوتر واجب فذكر المخدجي أنه راح إلى عبادة بن الصامت فذكر له أن أبا محمد يقول: الوتر واجب فقال عبادة بن الصامت: كذب أبو محمد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خمس صلوات كتبهن الله تبارك وتعالى على العباد من أتى بهن لم يضيع منهن شيئًا استخفافًا بحقهن كان له عند الله تبارك وتعالى عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء غفر له**» اهـ. وأخرجه مالك وأصحاب السنن والحاكم في المستدرك وصحَّحه ابن حبان وابن السكن والسيوطي وغيرهم.

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما أنهما قالا: إن رجلًا من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر، وهو أفقه منه: نعم، فاقض بيننا بكتاب الله، وَأْذَنْ لي، فقال رسول الله ﷺ: (**قل**). قال: إن ابني كان عسيفًا على هذا فزنى بامرأته، وإني أخبرت أن على ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني: أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي**

بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم رد، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، اغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها»، قال: فغدا عليها فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت اهـ.

فهذا الرجل مع كونه من الصحابة سأل أناسًا من الصحابة فأخطأوا الصواب ثم سأل علماء منهم، ثم أفتاه الرسول ﷺ بما يوافق ما قاله أولئك العلماء.

وفي معناه ما رواه أبو داود وغيره عن جابر قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلًا منا حجرٌ فشجَّه في رأسه ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصةً في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخْبِرَ بذلك فقال: **«قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العِيِّ السُّؤالُ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه خرقةً، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده»** اهـ.

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ قال **«إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»** اهـ.

قال النووي في شرح صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد، فأصاب أو أخطأ: قال العلماء: أجمع المسلمون على أنَّ هذا الحديث في حاكم عالم، أهل للحكم، فَإِن أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ أجر باجتهاده وأجر بإصابته، وإن أخطأ: فله أجر باجتهاده قالوا: فأمَّا من ليس بأهل للحكم فلا يحلُّ له الحكم، فإن حكم فلا أجر له، بل هو ءاثم، ولا ينفذ حكمه سواء وافق الحقَّ أم لا، لأنَّ إصابته اتِّفاقية ليست صادرة عن أصلٍ شرعيٍّ، فهو عاص في جميع أحكامه، سواء وافق الصَّواب أم لا، وهي مردودة كلُّها، ولا يعذر في شيء من ذلك اهـ.

وهذا كلّه يدل على أنه يجوز على أفراد البشر غير الأنبياء الخطأ في الدين، وأن العصمة ليست للفرد منهم وإنما للأنبياء عليهم السلام، وأن وقوع الخطأ من

هؤلاء الأكابر لا ينافي مقامهم ووفرة علمهم، ثم هذا ما هم عليه وما يعلّمونه.

وما أحسن قول الإمام أحمد الرفاعي رضي الله عنه حيث قال: «سلم للقوم أحوالهم ما لم يخالفوا الشرع فإذا خالفوا الشرع فكن مع الشرع» اهـ. وقول الإمام عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه حيث قال: «إذا رأى المريد من شيخه خطأ فلينبهه فإن قبل فذاك الأمر وإلا فليتركه وليتبع الشرع» اهـ.

الفرق بين المعجزة والكرامة

قال الحافظ ابن حجر في الفتح[1] عند قول البخاري باب علامات النبوة في الإسلام ما نصّه: «والفرق بينهما - أي المعجزة والكرامة - أن المعجزة أخص، لأنه يشترط فيها أن يتحدى النبي من يكذبه بأن يقول: إن فعلتُ كذا أتصدّقُ بأني صادقٌ، أو يقول من يتحداه: لا أصدقك حتى تفعل كذا. ويشترط أن يكون المتحدَّى به مما يعجز عنه البشر في العادة المستمرة، وقد وقع النوعان للنبي ﷺ في عدة مواطن.

وسميت المعجزة معجزة لعجز من يقع عندهم ذلك عن معارضتها، والهاء فيها للمبالغة أو هي صفة محذوف. فالفرق بين المعجزة والكرامة أن المعجزة تكون مقرونة بالتحدي لإثبات مدعي النبوة صدقه وأنه يجب أن تكون المعجزة ظاهرة بخلاف الكرامة فإنها لا تكون مقترنة بالتحدي وتكون للدلالة على صدق إتباع صاحبها لنبيه لكن يجوز أن يتحدى الولي بها لإثبات ولايته لكن الأغلب كتمانها.

دين الأنبياء واحد وشرائعهم مختلفة

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [سورة ءال عمران/ ١٩] وقال ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

---

(١) فتح الباري (ص/ ١٢٧ - ١٢٨).

[سورة ءال عمران/ ٨٥] أي أن الناس كانوا كلهم على دين واحد وهو الإسلام ثم اختلفوا فمنهم من ثبت على الإسلام ومنهم من كفر فبعث الله النبيين مبشرين من ءامن بالجنة ومحذرين من كفر بالنار، وروى الشيخان وأحمد وابن حبان وغيرهم أن رسول الله ﷺ قال: «**الأنبياء إخوة لعلَّات**[1] **دينهم واحد وأمهاتهم شتى**» اهـ.

والمعنى أن الأنبياء كلهم على دين واحد هو الإسلام فكلهم دعوا إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به شيئًا والتصديق بأنبيائه، لم يختلفوا في شيء من ذلك وإنما اختلفوا في الشرائع أي الأحكام، ومثال ذلك: أنه كان جائزًا في شرع ءادم أن يتزوج الأخ من أخته إن لم تكن توأمًا له وكان حرامًا أن يتزوج الأخ أخته التي هي توأمة له ثم نسخ الله تعالى هذا الحكم بعد موت ءادم وحرَّم زواج الأخ بأخته إن كانت توأمة له أو لم تكن. وأنه كان مفروضًا في شرائع أنبياء بني إسرائيل كموسى عليه السلام صلاتان في اليوم والليلة، وفي شرع نبينا محمد ﷺ فرضت خمس صلوات.

وأنّه كان جائزًا في شرع سيدنا يعقوب عليه السلام أن يجمع الرجل في الزواج بين المرأة وأختها وهو محرَّم في شرع محمد ﷺ، وأنّه كان جائزًا في الشرائع القديمة أن يسجد المسلم للمسلم تحيةً وهو محرَّم في شرعنا، فقد صح أن معاذ بن جبل لما قدم من الشام سجد لرسول الله ﷺ فقال له الرسول: «**ما هذا**»؟ قال: يا رسول الله رأيت أهل الشام يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم وأنت أَوْلى بذلك قال: «**لا تفعل، لو كنت ءامر أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**[2]» اهـ. رواه ابن حبان وابن ماجه وغيرهما.

---

(١) العلات بفتح المهملة الضرائر، وأصله أنّ من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها والعلُّ الشرب بعد الشرب وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى. فتح الباري (٦/ ٤٨٩).

(٢) أخبر المصطفى ﷺ أنّ ذلك لا يكون ولو كان لجعل المرأة تسجدُ في أداء حق الزوج. فيض القدير (٥/ ٤١٩).

أولو العزم من الأنبياء عليهم السلام

قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة الأحقاف/ ٣٥] أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدًا ﷺ بالصبر على أذى المشركين كما صبر من قبله من الرسل مع أنه ﷺ أقوى الناس في الصبر وليس لأنه أقل منهم صبرًا وفي هذا حثٌّ وحضٌّ له على الاستمرار في الصبر كما قال الله له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام/ ٩٠] أمره ربه أن يقتدي بالأنبياء الأطهار في حسن الخلق والتواضع والزهد وقوة الصبر مع أنه ﷺ أكمل العالمين في ذلك وهو أمرٌ له بالازدياد من ذلك وأولو العزم أي ذَوو الحزم والصبر كما ذكره الحافظ ابن الجوزي في تفسيره[1]، وقيل أولو الثبات والجد فإنهم صبروا على ما يصيبهم من الكفرة من الأذى وأنواع الابتلاء فاصبر على أذاهم إلى وقت نصرتنا إياك وتدميرهم، والعزم ثبات الرأي على الشىء والقول المعتمد فيهم أنهم خمسة وهو المروي عن الضحاك عن ابن عباس وبه قال مجاهد وقتادة وعطاء الخراساني وابن السائب كما ذكره ابن الجوزي وهم محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح عليهم الصلاة والسلام فهؤلاء أولو العزم من الرسل أي الذين بلغوا الغاية والنهاية في قوة الصبر والتحمل لأذى المشركين في سبيل الله وفي نشر الإسلام والدعوة إلى الله وقيل إن منهم هودًا وداود وسليمان وإسماعيل ويعقوب وقيل إنهم جميع الرسل فإن الله لم يبعث رسولًا إلا كان من أولي العزم قاله ابن زيد واختاره ابن الأنباري نقله ابن الجوزي في تفسيره كما مرّ سابقًا فعلى كل الأقوال يكون رسول الله عيسى عليه الصلاة والسلام من أولي العزم من الرسل وهذا يدل على عظيم قدره وعلو منزلته عليه الصلاة والسلام قال سيدنا وحبيبنا أبو هريرة عبد الرحمٰن بن صخر الصحابي الجليل الكريم الطيب المبارك رضي الله عنه

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمٰن بن الجوزي، ما يسمى المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، (٩/ ٣٩٢).

وأرضاه ونفعنا ببركاته وأمدنا بمدده: «خيار الأنبياء خمسة محمد إبراهيم موسى عيسى ونوح وخيار الخمسة محمد عليهم الصلاة والسلام» اهـ.

اختلاف الناس في نبوة مريم عليها السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة ءال عمران/ ٤٢]، ففي هذه الآية الكريمة أخبرنا الله تعالى بما قالته الملائكة لمريم من أن الله اصطفاها على نساء العالمين وهذا الاصطفاء إنما هو بالولاية وليس بالنبوة ولا بالرسالة فهي أفضل نساء العالمين كما ورد في حديث رسول الله ﷺ الذي فيه بيّن أن مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم ءاسيا هن أفضل النساء قال القرطبي في تفسيره لسورة ءال عمران ما نصه: كذلك رواه موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم ءاسية»** وهذا حديث حسن اهـ. فتبين أن اصطفاء مريم إنما هو مقيد بأنه على نساء العالمين وليس مطلقًا على كل العالمين فمن من قال من العلماء ستة من النساء نبيات حواء وأم موسى يوحانذ وسارة وهاجر وحنا أم مريم ومريم بنت عمران فهو قول ضعيف ليس معتمدًا ولا دليل عليه وأما من قال برسالة مريم فهو أبعد من الصواب لأن الله تعالى قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم ﴾ [سورة النحل/ ٤٣] فالصحيح والصواب والمعتمد أن السيدة مريم رضي الله عنها مؤمنة مسلمة تقية صالحة ولية وليست نبية.

نبي الله عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله عليه الصلاة والسلام

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [سورة المائدة/ ٧٥].

عدد المرات التي ذكر فيها في القرءان الكريم

ذكر عيسى عليه السلام في ثلاث عشرة سورة من القرءان، وفي ثلاث وثلاثين ءاية منه.

هو عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم بنت عمران وهو ءاخر أنبياء بني إسرائيل عيشًا في الأرض، قال ﷺ: «**الأنبياء إخوة لعلات دينهم واحد وأمهاتهم شتى وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ليس بيني وبينه نبي**» اهـ. رواه البخاري، كما أن ءاخر الأنبياء والرسل جميعًا هو محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام عبد من عباد الله خلقه الله تعالى وصوّره في الرحم كما صوّر غيره من البشر، وقد خلقه تعالى من غير أب كما خلق ءادم من غير أب وأم، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة ءال عمران/ ٥٩].

وأمّ نبي الله عيسى عليه السلام هي مريم بنت عمران من سلالة نبي الله داود عليه السلام، الصدّيقة الولية البتول العذراء الطاهرة التي تربّت في بيت الفضيلة وعاشت عيشة الطهر والنزاهة والتقوى، وقد أثنى الله تبارك وتعالى عليها في القرءان الكريم في مواطن عديدة، قال الله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [سورة التحريم/ ١٢].

وقد كان والد مريم عليها السلام عمران رجلًا صالحًا عظيمًا وعالمًا جليلًا من علماء بني إسرائيل، وكانت زوجته عاقرًا لا تلد واسمها «حَنَّة» وهي من العابدات، وكان زكريا نبي الله زوج أخت مريم في قول الجمهور وقيل زوج خالتها. وقد نذرت حَنَّة لله إن حملت لتجعلن ولدها محررًا لله أي خالصًا لخدمة بيت المقدس، فاستجاب الله عز وجل دعاءها فحملت بمريم عليها السلام، فلما وضعت حملها كان الولد أنثى وكانت ترجو أن يكون الولد ذكرًا ليخدم في بيت الله عندئذ فتوجهت بالدعاء إلى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [سورة ءال عمران/ ٣٦]. وقد استجاب الله تعالى لها قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾[سورة ءال عمران/ ٣٧].

خبر عيسى في القرءان

إن الله تعالى بيّن أمر المسيح، فقال لرسوله ﷺ ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [سورة مريم/ ٣٤]. يعني أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله، ولهذا قال: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة مريم/ ٣٥]. أي لا يُعجزه شيء ولا يؤوده بل هو القدير الفعّال لما يشاء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ [(١)]﴾[سورة يس/ ٨٢].

وقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة الزخرف/ ٦٤]، هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد، أخبرهم أن الله ربه وربهم وإلهه وإلههم، وأن هذا هو الصراط المستقيم قال الله تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ

(١) قال أبو البقاء في الكليات (ص/ ٣٨٥).
«كن فيكون» عبارة عن سرعة الإيجاد بلا تعب ولا مشقة وليس معناه أن الله يتلفظ بكاف ونون فهذا تشبيه لله بخلقه وقد أجمع أهل السنة على أن كلام الله بلا حرف ولا صوتٍ ولا لغةٍ.

مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة مريم/ ٣٧]. أي فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه فقال بعضٌ من اليهود إنه ولد زانية، واستمروا على كفرهم وعنادهم، وقابلهم ءاخرون في الكفر، فقالوا هو الله، وقال ءاخرون هو ابن الله، وقال المؤمنون هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه وهؤلاء هم الناجون المثابون المؤيدون المنصورون، ومن خالفهم في شىء من هذه القيود فهم الكافرون الضالّون الجاهلون وقد توعدهم الله العليّ العظيم الحكيم العليم بقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة مريم/ ٣٧].

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴾ [سورة البقرة/ ٨٧].

قال البغوي[1] في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا ﴾ أي أعطينا ﴿مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ يعني التوراة جملة واحدة ﴿وَقَفَّيۡنَا ﴾ أي وأتبعنا من التقفية وهو أن يقفو الواحد أثر الآخر ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾ يعني رسولًا بعد رسول (يعني من بعثهم الله وأرسلهم من عنده وليس كلهم رسل بالمعنى الاصطلاحي)، وكانت الرسل من بعد موسى إلى زمن عيسى عليهم السلام متواترة يظهر بعضهم في أثر بعض، والشريعة واحدة وقيل إن الرسل بعد موسى: يوشع بن نون، واشمويل، وداود، وسليمان، وأرمياء، وحزقيل، وإلياس، ويونس، وزكريا، ويحيى، وغيرهم. وكانوا يحكمون بشريعة موسى إلى أن بعث الله تعالى عيسى عليه السلام، فجاءهم بشريعة جديدة وغير بعض أحكام التوراة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ أي الدلالات الواضحات وهي المعجزات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وقيل هي الإنجيل ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ ﴾ أي وقوّيناه ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ ﴾

---

(١) تفسير البغوي، دار المعرفة - بيروت (١/ ٩٢).

قيل أراد بالروح الذي نفخ فيه، وروح القدس هو جبريل والمواضع التي فيها إضافة روح عيسى إليه كما في قوله تعالى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أضاف روح عيسى إليه تشريفًا وتكريمًا وتخصيصًا له، كما تقول عبد الله وأمة الله وبيت الله وناقة الله. وقال ابن عباس: هو اسم الله الأعظم[1] الذي كان عيسى يحيي به الموتى. وقيل: هو الإنجيل، لأنه حياة القلوب سمّاه روحًا كما سمي القرءان روحًا. وقيل: هو جبريل. ووصف بالقدس وهو الطهارة لأنه لم يقترف ذنبًا قط وقيل القدس هو الله تعالى، والروح جبريل، كما تقول عبد الله، أسمي جبريل روحًا للطافته لأنه روحاني خلق من النور وقيل سمي روحًا لمكانه من الوحي الذي هو سبب حياة القلوب وحمل روح القدس هنا على جبريل أولى، لأنه تعالى قال ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ أي قويناه وذلك أنه أمر أن يكون مع عيسى ويسير معه حيث سار، فلم يفارقه حتى صعد به إلى السماء، فلما سمعت اليهود بذكر عيسى، قالوا: يا محمد لا مثل عيسى كما تزعم عملت، ولا كما تقصّ علينا من أخبار الأنبياء فعلت فائتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقًا؟ قال الله تعالى ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ﴾ يعني يا معشر اليهود ﴿رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي تعاظمتم عن الإيمان به ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ يعني مثل عيسى ومحمد ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ مثل زكريا ويحيى وسائر من قتلوه وذلك أن اليهود كانوا إذا جاءهم رسول بما لا يهوون كذّبوه، فإن تهيأ لهم قتله قتلوه وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الدنيا وطلب الرياسة ﴿وَقَالُواْ﴾ يعني اليهود ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ جمع أغلف وهو الذي عليه غشاوة فلا يعي ولا يفقه، قال ابن عباس: غلف بضم اللام جمع غلاف والمعنى أن قلوبنا أوعية للعلم فلا تحتاج إلى علمك، وقيل: أوعية من الوعي لا تسمع حديثًا إلا وعته إلا حديثك فإنها لا تعيه ولا تعقله ولو كان خيرًا لفهمته ووعته. قال الله تعالى ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي طردهم وأبعدهم عن كل خير. وسبب كفرهم أنهم اعترفوا

---

(١) وهذا ليس معتمدًا ولم يثبت عن ابن عباس الذي عليه الإجماع أن اسم الله الأعظم المفرد هو لفظ الجلالة الله، وأما إن كان ضمن جملة فقد ورد في ذاك عن العلماء عدة أقوال.

بنبوة محمد ﷺ ثم إنهم أنكروه وجحدوه فلهذا لعنهم الله تعالى ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لم يؤمن منهم إلا قليل. قوله عز وجل ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرءان ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يعني التوراة، وهذا التصديق في صحة نبوة محمد ﷺ لأن نبوته وصفته ثابتة في التوراة ﴿وَكَانُوا۟﴾ يعني اليهود ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل النبي ﷺ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ أي يستنصرون به ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني مشركي العرب، وذلك أنهم كانوا إذا أحزنهم ودهمهم عدو يقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في ءاخر الزمان، الذي نجد صفته في التوراة فكانوا ينصرون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين قد أظلّ زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ أي الذين عرفوه يعني محمدًا ﷺ عرفوا نعته وصفته وأنه من غير بني إسرائيل ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي جحدوه وأنكروه بغيًا وحسدًا ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أي بئس شيء اشتروا به أنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق واشتروا بمعنى باعوا، والمعنى بئس ما باعوا به أنفسهم ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني القرءان ﴿بَغْيًا﴾ أي حسدًا ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني الكتاب والنبوّة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿فَبَآءُو﴾ أي فرجعوا ﴿بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أي مع غضب، قال ابن عباس: الغضب الأول بتضييعهم التوراة وتبديلها، والثاني: بكفرهم بمحمد ﷺ. وقيل: الأول بكفرهم بعيسى والإنجيل، والثاني بمحمد ﷺ والقرءان. وقيل: الأول بعبادتهم العِجل، والثاني بكفرهم بمحمد ﷺ. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني الجاحدين نبوّة محمد ﷺ من الناس كلهم ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي يهانون فيه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني بالقرءان، وقيل بكل ما أنزل الله ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعني التوراة وما أنزل على أنبيائهم ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي بما سواه من الكتب، وقيل بما بعده يعني الإنجيل والقرءان ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القرءان ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يعني التوراة ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن

﴿قَبۡلُ﴾[1] إنما أضاف القتل للمخاطبين من اليهود وإن كان سلفهم قتلوا لأنهم رضوا بفعلهم، قيل إذا عملت المعصية في الأرض فمن كرهها وأنكرها بَرِئَ منها، ومن رضيها كان من أهلها ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي بالتوراة وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء.

تفسير قوله تعالى ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [سورة البقرة].

وقوله تعالى ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ قال ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وأبي ياسر بن أخطب، وفي نصارى نجران السيد والعاقب وأصحابهما، وذلك أنهم خاصموا المؤمنين في الدين، فكل فريق منهم يزعم أنه على حق فقالت اليهود: نبيّنا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفروا بعيسى والإنجيل، ومحمد والقرءان، وقالت النصارى كذلك. وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك. فأنزل الله عز وجل ﴿قُلۡ﴾ يعني يا محمد ﴿بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ يعني إذا كان لا بد من الاتباع، فنتبع ملّة إبراهيم لأنه مجمعٌ على فضله ﴿حَنِيفٗا﴾ أصله من الحنف وهو ميل واعوجاج يكون في القدم. قال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام.

والعرب تسمّي كل من حج أو اختتن حنيفًا تنبيهًا على أنه على دين إبراهيم. وقيل: الحنيفية الختان، وإقامة المناسك مسلمًا، يعني أن الحنيفية هي دين الإسلام،

---

(١) قال الرازي في تفسيره (٢/ ٢٢١): وذلك لأن التوراة دلت على أن المعجزة تدل على الصدق ودلت على أن من كان صادقًا في ادعاء النبوة فإن قتله كفر.

وهو دين إبراهيم عليه السلام ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ يعني إبراهيم، وفيه تعريض باليهود والنصارى وغيرهم، ممن يدّعي اتباع ملّة إبراهيم وهو على الشرك، ثم علّم المؤمنين طرائق الإيمان، فقال تعالى ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ يعني قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم: كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا، ءامنا بالله، أي صدّقنا بالله ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ يعني القرءان ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ يعني وءامنا بما أنزل إلى إبراهيم وهو عشر صحائف ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ وهم أولاد يعقوب، واحدهم سبط. وقيل: السبط هو ولد الولد وهو الحفيد ومنه قيل للحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ، والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ يعني التوراة ﴿وَعِيسَىٰ﴾ يعني الإنجيل ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ والمعنى ءامنا أيضًا بالتوراة والإنجيل والكتب التي أوتيها جميع النبيين وصدقنا أن ذلك كلّه حق وهدى ونور وأن الجميع من عند الله وأن جميع ما ذكر الله من أنبيائه كانوا على هدى وحق ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض، كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد ﷺ وأقرّت ببعض الأنبياء، وكما تبرأت النصارى من محمد ﷺ وأقرت ببعض الأنبياء، بل نؤمن بكل الأنبياء، وأن جميعهم كانوا على حق وهدى.

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي ونحن لله تعالى خاضعون بالطاعة، مذعنون له بالعبودية.

وعن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآية.

تفسير قوله تعالى ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ

﴿ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة البقرة/ ٢٥٣].

وقوله تعالى ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني الحجج والأدلة الباهرة، والمعجزات الظاهرة على نبوّته، مثل إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي وقوّيناه بجبريل عليه السلام، فكان معه إلى أن رفعه إلى عنان السماء. فإن قلت: لِمَ خصّ موسى وعيسى بالذكر من بين سائر الأنبياء؟ قلت: لما أُوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة، ولقد بيّن الله تعالى وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل، وهو ءاية عظيمة، وتأييد عيسى بروح القدس ءاية عظيمة أيضًا. فلما أُوتي موسى وعيسى من الآيات العظيمة خصّا بالذكر من باب التفضيل ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي ولو أراد الله، وأصل المشيئة الإرادة ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ يعني بعد الرسل الذين وصفهم الله ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي الدلالات الواضحات من الله، بما فيه مزدجر لمن هداه الله تعالى ووفقه.

﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ يعني اختلف هؤلاء الذين من بعد الرسل ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ أي ثبت على إيمانه بالله ورسوله ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ أي ومنهم من تعمد الكفر بعد قيام الحجة وبعثة الرسل ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أي ولو أراد الله أن يحجزهم عن الاقتتال والاختلاف لحجزهم عن ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ يعني أنه تعالى يوفّق من يشاء لطاعته والإيمان به، فضلًا منه ورحمة، ويخذل من يشاء عدلًا منه، لا اعتراض عليه في مُلكه وفِعله.

تفسير قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ

ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾﴾
[سورة ءال عمران].

وقوله تعالى ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ﴾ ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ يعني جبريل عليه السلام والبشارة إخبار المرء بما يسره من خير ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ﴾ يعني برسالة من الله وخير من عنده، فهو كقول القائل: ألقى إلي فلان كلمة سرّني بها، وأخبرني خبرًا فرحت به، وهي ولد يولد لك من غير بعل ولا فحل وذلك الولد ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾.

واختلفوا لِمَ سُمي عيسى عليه السلام مسيحًا، وهل هو اسم مشتق؟ أو موضوع؟ فقيل إنه موضوع، وأصله بالعبرانية مشيحا فغيرته العرب وأصل عيسى: أيشوع، كما قالوا موسى وأصله موشى أو ميشى. وقال الأكثرون: إنه اسم مشتق ثم ذكروا فيه وجوهًا. قال ابن عباس: سُمي عيسى مسيحًا: لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برئ منها. وقيل: لأنه مسح بالبركة. وقيل: لأنه مسح من الأقذار، وطهر من الذنوب. وقيل: إنه خرج من بطن أمه ممسوحًا بالدهن. وقيل: لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه حتى لا يكون للشيطان عليه

سبيل. وقيل: لأنه كان يسيح في الأرض ولا يقيم بمكان، فكأنه يمسح الأرض أي يقطعها سياحة فعلى هذا القول تكون الميم زائدة وقيل سمي مسيحًا لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص له. وسمي الدجال مسيحًا، لأنه ممسوح إحدى العينين. وقيل المسيح هو الصديق وبه سمي عيسى عليه السلام وقد يكون المسيح بمعنى الكذاب وبه سمي الدجال فعلى هذا تكون هذه الكلمة من الأضداد. وقوله تعالى: ﴿وَجِيهًا﴾ أي شريفًا رفيعًا ذا جاه وقدر ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أما وجاهته في الدنيا فبسبب النبوّة وأنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى، وأما وجاهته في الآخرة فبسبب علو مرتبته عند الله، وهو قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني عند الله يوم القيامة لأن أهل الجنة منازل ودرجات ومنازل الأنبياء ودرجاتهم أعلى من سواهم، وقيل فيه تنبيه على علّو منزلته وأنه رفعه إلى السماء ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾ يعني ويكلّم الناس صغيرًا وهو في المهد وذلك قبل أوان الكلام ووقته، والكلام الذي تكلم به هو ما ذكره الله عنه في سورة مريم وهو قوله ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٣٠﴾﴾ الآية. وتكلم ببراءة أمه مما رماها به أهل الفِرية من القذف.

ويحكى أن مريم قالت: «كنت إذا خلوت أنا وعيسى، حدّثني وحدّثته، فإذا شغلني عنه إنسان سبّح في بطني وأنا أسمع» اهـ. ولما تكلّم ببراءة أمه سكت بعد ذلك فلم يتكلم إلا في الوقت الذي يتكلم فيه الصغير.

قال ابن العباس: تكلم عيسى ساعة ثم سكت، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغ النطق. ﴿وَكَهْلًا﴾ يعني ويكلّم الناس في حال الكهولة، والكهل في اللغة هو الذي اجتمعت قوته وكمل شبابه، والكهل عند العرب الذي جاوز الثلاثين، وقيل: هو الذي خطه الشيب، وهو السن الذي يستحكم فيه العقل، وتتنبأ فيه الأنبياء فلمّا كان لعيسى ثلاثون سنة أرسله الله تعالى فمكث في رسالته ثلاثين شهرًا، ثم رفعه الله تعالى.

وقال وهب بن منبّه: جاءه الوحي على رأس ثلاثين سنة، فمكث في نبوته

ثلاث سنين، ثم رفعه الله. فمعنى الآية: أنه يكلّم الناس وهو في المهد ببراءة أمه، وهي معجزة عظيمة، ويكلّم الناس في حال الكهولة بالدعوة والرسالة. وقيل فيه بشارة لمريم فإنه أخبرها بأنه يبقى حتى يكتهل، وقيل فيه إخبار بأنه يتغير من حال إلى حال ولو كان إلــٰهًا كما زعمت النصارى لم يدخل عليه التغيير، ففيه رد على النصارى الذين يدّعون فيه الألوهية.

وقال الحسن بن الفضل: ﴿وَكَهْلًا﴾ يعني ويكلّم الناس كهلًا بعد نزوله من السماء. وفي هذا نص على أنه سينزل من السماء إلى الأرض، ويقتل الدجال.

وقال مجاهد: الكهل الحكيم، والعرب تمدح الكهولة لأنها الحالة الوسطى في احتناك السن واستحكام العقل وجودة الرأي والتجربة، ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مثل إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى، وغيرهم من الأنبياء وإنما ختم أوصاف عيسى عليه السلام بكونه من الصالحين بعدما وصفه بالأوصاف العظيمة، لأن الصلاح من أعظم المراتب وأشرف المقامات، لأنه لا يسمى المرء صالحًا حتى يكون مواظبًا على النهج الأصلح والطريق الأكمل في جميع أقواله وأفعاله، فلما وصفه الله تعالى بكونه وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين وأنه يكلّم الناس في المهد وكهلًا أردفه بقوله ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ليُكمِل له أعلى الدرجات وأشرف المقامات وقوله تعالى ﴿قَالَتْ﴾ يعني مريم ﴿رَبِّ﴾ يعني تقول لله عز وجل ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ﴾ أي من أين يكون لي ولد ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ أي ولم يصبني رجل، وإنما قالت ذلك تعجبًا لا شكًّا في قدرة الله تعالى، إذ لم تكن العادة جرت أن يولد ولد من غير أب ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني هكذا يخلق الله منك ولدًا من غير أن يمسَّكِ بشر، فيجعله ءاية للناس وعبرة، فإنه يخلق ما يشاء ويصنع ما يريد وهو قوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يعني كما يريد ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني الكتابة والخط باليد، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني العلم والسنّة وأحكام الشرائع ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ التي أُنزلت على موسى ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الذي أُنزل عليه، وهذا إخبار من الله تعالى لمريم ما هو فاعل بالولد الذي بشّرها

به من الكرامة وعلو المنزلة ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي ونجعله رسولًا إلى بني إسرائيل، وكان أول أنبياء بني إسرائيل يوسف وأبوه يعقوب وءاخرهم عيسى ابن مريم عليه السلام، فلما بعث إليهم قال ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يعني بعلامة من ربكم على صدق قولي، وإنما قال ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ وقد جاء بآيات كثيرة، لأن الكل دلّ على شيء واحد وهو صدقه في الرسالة فلما قال عيسى لبني إسرائيل ذلك، قالوا: ما هذه الآية؟ قال: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ﴾[1] أي أصوّر أُقدّر ﴿لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ والهيئة الصورة المهيأة، من قولهم هيأت الشيء إذا قدّرته وأصلحته ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ أي في الطين المهيأ المصوّر ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا﴾ قرئ بلفظ الجمع، لأن الطير اسم جنس يقع على الواحد والاثنين والجمع، وقرئ فيكون طائرًا على التوحيد، على معنى يكون ما أنفخ فيه طائرًا، أو ما أخلقه يكون طائرًا، وقيل: إنه لم يخلق غير الخفاش، وهو الذي يطير في الليل، وإنما خصّ الخفاش لأنه من أكمل الطيور خلقًا، وذلك لأنه يطير بلا ريش وله أسنان، ويُقال إن الأنثى منه لها ثدي وتحيض. ويذكرون أن عيسى عليه السلام لما ادّعى النبوّة وأظهر لقومه المعجزات أخذوا يتعنتون عليه، فطلبوا منه أن يخلق لهم خفاشًا، فأخذ طينًا وصوّره كهيئة الخفاش ثم نفخ فيه، فإذا هو طير يطير بين السماء والأرض.

قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عنهم، سقط ميتًا، ليتميز فعل المخلوق من فعل الخالق وهو الله تعالى، وليعلم أن الكمال لله تعالى، ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ معناه بتكوين الله وتخليقه، والمعنى أني أعمل هذا التصوير أنا، فأما خلق الحياة فيه فهو من الله تعالى، وعلى سبيل إظهار المعجزة على يد عيسى عليه السلام ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ أي وأشفي الأكمه، قال ابن عباس:

---

(١) الخَلْقُ هنا بمعنى التَّصوير كَمَا قال تعالى أيضًا في حقّ عيسى عليه السلام ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ [سورة المائدة/ ١١٠] فعيسى عليه السلامُ كان يُصوّرُ من الطينِ صورةَ خُفاشٍ ثم يَخلُقُ الله فيها الروحَ ثم تطيرُ حتى تغيبَ عن أنظارِ الناسِ ثم تقعُ مَيْتَةً، وهذه من جملةِ معجزاتِ المسيحِ عليه السلام.

هو الذي ولد أعمى، وقيل هو الأعمى وإن كان أبصر. وقيل هو الأعشى وهو الذي لا يبصر بالليل. والأبرص وهو الذي به وضح.

وكان الغالب على زمان عيسى عليه السلام الطب، فأراهم المعجزة من جنس ذلك، إلا أنه ليس في علم الطب إبراء الأكمه والأبرص، فكان ذلك معجزة له ودليلًا على صدقه. وقال وهب: ربما اجتمع على عيسى عليه السلام من المرضى في اليوم الواحد نحو خمسين ألفًا فمن أطاق أن يمشي إليه مشى ومن لم يطق مشى عيسى عليه السلام إليه وكان يداويهم بالدعاء على شرط الإيمان برسالته ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: قد أحيا أربعة أنفس: عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح، وكلهم بقي وولد له إلا سام بن نوح ﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾ يعني وأخبركم ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ أي مما لم أُعاينه ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي وما ترفعونه فتخبئونه في بيوتكم لتأكلوه في ما بعد ذلك، قيل: كان عيسى عليه السلام يخبر الرجل بما أكل البارحة، وبما يأكله اليوم، وبما يدّخره للعشاء، وقيل: كان في الكتّاب يحدّث الغلمان بما يصنع ءاباؤهم، ويقول للغلام: انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا وقد رفعوا لك كذا، فينطلق الصبي فيبكي على أهله حتى يعطوه ذلك الشيء، فيقولون: من أخبرك بهذا؟ فيقول: عيسى فحبسوا صبيانهم عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ قال الله عز وجل ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ أي وجد وعرف، وقيل: رأى، والإحساس عبارة عن وجدان الشيء بالحاسة والمعنى أنهم تكلموا بكلمة الكفر فأحسّ ذلك عيسى منهم وعرف إصرارهم عليه وعزمهم على قتله ﴿قَالَ﴾ يعني عيسى عليه السلام ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي مع الله، وقيل معناه إلى أن أُبيّن أمر الله وأُظهر دينه، وقيل: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي في ذات الله وسبيله وقيل ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في موضعها، والمعنى مَن يضمّ نصرته إلى نصرة الله لي ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ وذلك أن عيسى عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى الله تعالى وتمردوا عليه وكفروا به خرج يسيح في الأرض فمرّ بجماعة يصطادون السمك

وكانوا اثني عشر ورئيسهم شمعون ويعقوب فقال عيسى عليه السلام: ما تصنعون؟ قالوا: نصيد السمك قال: أفلا تمشون حتى نصيد الناس؟ قالوا: ومن أنت؟ قال: أنا عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله، فسألوه ءاية تدلهم على صدقه، وكان شمعون قد رمى بشبكته في الماء، فدعا الله عيسى، فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق من كثرته، فاستعانوا بأهل سفينة أخرى، وملؤوا السفينتين من السمك، فعند ذلك ءامنوا به وانطلقوا معه، واختلف في الحواريين، فقيل: كانوا يصطادون السمك، فلما ءامنوا بعيسى صاروا يصطادون الناس ويهدونهم إلى دين الله،فسموا حواريين لبياض ثيابهم، يقال: حوّرت الشيء بمعنى بيضته. وقيل: كانوا قصّارين سمّوا بذلك لأنهم كانوا يحورون الثياب أي يبيضونها. وقيل إن مريم سلمت عيسى إلى أعمال شتّى، فكان ءاخر من سلمته إليه الحواريين، وكانوا قصّارين وصبّاغين فدفعته إلى رئيسهم ليتعلم منه، فاجتمع عنده ثياب وعرض له سفر، فقال لعيسى: إنك قد تعلمت هذه الصنعة، وأنا خارج في سفر، ولا أرجع إلى عشرة أيام، وهذه ثياب مختلفة الألوان، وقد علّمتُ كلّ واحدٍ منها بخيط على اللون الذي يصبغ به فأُريد أن تفرغ منها وقت قدومي، وخرج المعلم إلى سفره، فطبخ عيسى حُبًا واحدًا على لون واحد وأدخل فيه جميع الثياب، وقال: كوني بإذن الله على ما أريد منك، ثم قدم الحواري والثياب كلها في الحب[1]، فقال لعيسى: ما فعلت؟ قال: قد فرغت منها، قال: وأين هي؟ قال: في الحب، قال؟: كلها؟ قال: نعم، قال: لقد أفسدت عليّ الثياب: قال عيسى: لا، ولكن قُم فانظر، وقام عيسى وأخرج ثوبًا أحمر، وثوبًا أخضر، وثوبًا أصفر، وثوبًا أسود، حتى أخرجها كلها على الألوان التي يريد الحواري فجعل الحواري يتعجب من ذلك وعلم أن ذلك من الله تعالى، فقال للناس: تعالوا فانظروا، فآمن به هو وأصحابه وهم الحواريون، وقيل: سمّوا حواريين لصفاء قلوبهم، ولما ظهر

---

(١) هو الوعاء.

عليهم من أثر العبادة ونورها. وقيل الحواريون الأصفياء، وكانوا أصفياء عيسى وخاصته. وقيل الحواريون هم الخلفاء. وقيل هم الوزراء، وكانوا خلفاء عيسى ووزراءه وقيل الحواريون هم الأنصار، والحواري الناصر، والحواري الرجل الذي يُستعان به. ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ يعني أنصار دين الله ورسوله وأعوانه ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي صدّقنا بأن الله ربّنا وربّ كل شيء ﴿وَٱشْهَدْ﴾ يعني أنت يا عيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ قيل معناه واشهد بأنّا منقادون لما تريد من نصرك والذبّ عنك ومستسلمون لأمر الله عزّ وجلّ. وقيل هو إقرار منهم بأن دينهم هو الإسلام، وأنه دين عيسى وكل الأنبياء قبله لا اليهودية والنصرانية ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ يعني قال الحواريون بعد إشهاد عيسى عليهم بأنهم مسلمون ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ يعني بكتابك الذي أنزلته على عيسى عليه السلام ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ يعني عيسى ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يعني الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق، واتبعوا أمرك ونهيك، فأثبت أسماءنا مع أسمائهم واجعلنا في عدادهم ومعهم في ما تكرمهم به، وهذا يقتضي أن يكون للشاهدين الذين سأل الحواريون أن يكونوا معهم مزيد فضل عليهم فلهذا قال ابن عباس في قوله ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي مع محمد ﷺ وأمته لأنهم هم المخصوصون بتلك الفضيلة، فإنهم يشهدون للرسل بالبلاغ. وقيل ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يعني النبيين، لأنّ كلَّ نبي شاهدٌ على أمته، وقوله عز وجل ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ يعني كفار بني إسرائيل الذين أحسّ عيسى منهم الكفر، وأصل المكر صرف الغير عمّا يقصده بضرب من الحيلة. وقيل هو السعي بالفساد في الخفية. فأما مكرهم بعيسى فإنّهم دبروا في قتله وهمّوا به، وذلك أن عيسى عليه السلام بعد أن أخرجه قومه هو وأمّه رجع مع الحواريين، وصاح فيهم بالدعوة، وأظهر رسالته إليهم فهمّوا بقتله والفتك به، فذلك مكرهم، والمكر من الخلق الخبث والخديعة والحيلة. ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أي جازاهم على مكرهم فسمى الجزاء باسم الابتداء لأنه في مقابلته. وقيل مكرُ الله استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يحتسب فذلك

قوله تعالى ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ يعني هو أفضل الـمُجازين بالسيئة العقوبة. قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله عيسى عليه السلام قال لأصحابه: أيُّكم يقذف عليه شبهي فإنّه مقتول، فقال رجل منهم: أنا يا نبي الله، فقتل ذلك الرجل، ومنع الله عيسى، ورفعه إلى السماء.

قال أهل التاريخ: حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وولدته ببيت لحم من أرض أوري شليم لمضيّ خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل. و أوحى الله إلى عيسى على رأس ثلاثين سنة، ورفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فكانت نبوّته ثلاث سنين وعاشت أمّه مريم بعد رفعه ست سنين.

تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ اختلفوا في معنى

التوفّي هنا على طريقين: فالطريق الأول: أن الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير، وذكروا في معناها وجوهًا:

الأول: معناه: إني قابضُك ورافِعُك إليّ[1] من غير موت، من قولهم توفيت الشيء واستوفيته إذا أخذته وقبضته تامًّا، والمقصود منه هنا أن لا يصل أعداؤه من اليهود إليه بقتل ولا غيره.

الوجه الثاني: أن المراد بالتوفّي النوم، ومنه قوله عزّ وجلّ الله ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ فجعل النوم وفاة وكان عيسى قد نام فرفعه الله وهو نائم فمعنى الآية إني منيمك ورافعك إليّ. وهذا القول ليس معتمدًا.

الوجه الثالث: أن المراد بالتوفّي حقيقة الموت. قال ابن عباس: معناه: إني مُميتك، قال وهب بن منبّه: إن الله توفى عيسى ثلاث ساعات من النهار، ثم أحياه، ثم رفعه إليه. وقيل: إنّ النصارى يزعمون أنّ الله توفّاه سبع ساعات من النهار، ثم أحياه ورفعه إليه. وهو ليس صحيحًا.

الوجه الرابع: إنّ الواو في قوله تعالى ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ لا تفيد الترتيب، والآية تدل على أنّ الله تعالى يفعل به ما ذكر. فأما كيف يفعل؟ ومتى يفعل؟ فالأمر فيه موقوف على الدليل، وقد ثبت في الحديث: **أنّ عيسى سينزل ويقتل الدجال**، رواه مسلم وسنذكره إن شاء الله تعالى.

الوجه الخامس: قال أبو بكر الواسطي: معناه إني متوفّيك عن شهواتك، وعن حظوظ نفسك، ورافعك إليّ، وذلك أن عيسى عليه السلام لما رُفع إلى السماء صارت حالته حالة الملائكة في زوال الشهوة. وهذا القول ليس معتمدًا.

الوجه السادس: أن معنى التوفّي أخذ الشيء وافيًا. ولما علم الله تعالى أنّ من الناس من يخطر بباله أنّ الذي رفعه الله إليه هو روحه دون جسده، كما زعمت

---

(١) أي إلى محل كرامتي وهو السماء وأما الله فموجودٌ أزلاً وأبدًا بلا مكان ولا جهة ولا حيز.

النصارى أنّ المسيح رفع لاهوته، يعني روحه، وبقي في الأرض ناسوته، يعني جسده، فردّ الله عليهم بقوله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فأخبر الله أنه رفعه بتمامه إلى السماء بروحه وجسده جميعًا. والقول الصحيح المعتمد أنَّ المسيح رُفع إلى السماء حيًّا مستيقظًا لا ميتًا ولا نائمًا وهذه معجزة له.

الطريق الثاني: أنّ في الآية تقديمًا وتأخيرًا، تقديره إنّي رافعك إليّ ومُطهِرُك من الذين كفروا، ومتوفّيك بعد إنزالك إلى الأرض. وقيل لبعضهم: هل تجد نزول عيسى إلى الأرض في القرءان؟ قال: نعم، قوله تعالى ﴿وَكَهْلًا﴾ وذلك لأنّه لم يتكهل في الدنيا، وإنّما معناه وكهلًا بعد نزوله من السماء. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشِكَنَّ أن يَنزِلَ فيكُمُ ابن مريم حَكَمًا عَدلًا مُقسِطًا فيكسِرَ الصليبَ ويقتلَ الخنزيرَ ويضع الجزية ويَفيضَ المال حتى لا يقبلَهُ أحد**» اهـ. رواه الحاكم في المستدرك، زاد في رواية: «**حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها**» اهـ. رواه البخاري ومسلم ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [سورة النساء/ ١٥٩]. وفي رواية: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامُكم منكم**» اهـ. رواه البخاري. وفي رواية: «**فأمَّكُم منكم**» اهـ. رواها مسلم. قال ابن أبي ذئب: تدري ما «**أمَّكم منكم**» قلت: فأخبرني، قال: فأمّكم بكتاب ربّكم عزّ وجلّ وبسنّة نبيكم ﷺ اهـ. وفي إفراد مسلم من حديث النّواس بن سمعان قال: «**فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق**» اهـ..

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس بيني وبينه - يعني عيسى - نبيّ وإنّه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنّه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويُهلك الله الملل في زمانه كلّها إلا الإسلام ويُهلك المسيح الدجال، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ثم يُتوفى فيُصلي عليه المسلمون**» اهـ. أخرجه أبو داود.

ونقل بعضهم: أن عيسى عليه السلام يدفن في حجرة رسول الله ﷺ فيقوم أبو بكر وعمر يوم القيامة بين نبـيَّيْن محمدٍ وعيسى عليهما السلام.

قوله عزّ وجلّ ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني مُخرجُك من بينهم ومُنجيك منهم ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يعني وجاعل الذين اتبعوك في التوحيد وصدّقوا قولك، وهم أهل الإسلام من أمّة محمّد، فوق الذين كفروا بالعزّ والنّصر والغلبة بالحجّة الظاهرة.

وقيل: هم الحواريون الذين اتبعوا عيسى على دينه، والقول الأول هو الأصح، لأن الذين اتبعوه هم الذين شهدوا له بأنه عبد الله ورسوله وكلمته وهم المسلمون فملكهم باقٍ إلى يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني يقول الله عز وجل إليَّ مرجع الفريقين في الآخرة، الذين اتبعوا عيسى وصدقوا به، والذين كفروا به ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يعني من الحق في أمر عيسى.

ثم بيّن ذلك الحكم فقال تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني الذين جحدوا نبوّة عيسى عليه السلام وخالفوا ملّته وقالوا فيه ما قالوا من الباطل، ووصفوه بما لا ينبغي من سائر اليهود والنصارى ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ يعني بالقتل والسبي والذلّة وأخذ الجزية منهم ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي وأعذبهم في الآخرة بالنار ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ يعني مانعين يمنعونهم من عذابنا ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني بعيسى عليه السلام وصدّقوا بنبوّته وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ يعني عملوا بما فرض عليهم وشرع لهم ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ يعني جزاء أعمالهم لا ينقص منه شيء ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي لا يحب من ظلم غيره حقًا له، أو وضع شيئًا في غير موضعه، والمعنى أنه تعالى لا يرحمهم ولا يثني عليهم.

ثم قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني الذي ذكرته لك من أخبار عيسى وأمّه مريم والحواريين وغير ذلك من القصص ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ أي نخبرك به يا محمّد على

لسان جبريل، وإنّما أضاف ما يتلوه جبريل عليه السلام إلى نفسه سبحانه وتعالى لأنّه من عنده وبأمره من غير تفاوت أصلًا، فأضافه إليه ﴿مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يعني من القرءان.

وقيل: الآيات يعني العلامات الدالّة على نبوتك يا محمّد، لأنّها أخبار لا يعلمها إلا من يقرأ أو يكتب، أو نبي يوحى إليه، وأنت أميّ لا تقرأ ولا تكتب فثبت أن ذلك من الوحي السماوي الذي أنزل عليك ﴿وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي المحكم الممنوع من الباطل. قيل المراد بالذكر الحكيم القرءان، لأنه حاكم يستفاد منه جميع الأحكام. وقيل الذكر الحكيم هو اللوح المحفوظ الذي منه تنزّل جميع كتب الله على رسله، وهو لوح من درة بيضاء معلّق بالعرش، وقوله تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ الآيةَ. أجمع أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في محاجّة نصارى وفد نجران. قال ابن عباس: إن رهطًا من أهل نجران قدموا على النبي ﷺ وكان فيهم السيد والعاقب، فقالوا للنبي ﷺ: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال: من هو؟ قالوا: عيسى، تزعم أنه عبد الله؟ فقال النبي ﷺ: **أجل، إنه عبد الله**، فقالوا له: فهل رأيت له مثلًا، أو أُنبئت به. ثم خرجوا من عنده، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له: قل لهم إذا أتوك ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [سورة ءال عمران/ ٥٩] اهـ.

وقيل إنّ النّبي ﷺ قال لهم: **إنّه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول**، فغضبوا وقالوا: يا محمّد هل رأيت إنسانًا قطّ من غير أب؟ فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في الخلق والإنشاء، في كونه خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ في كونه خلقه من تراب من غير أب وأم، ومعنى الآية أن صفة خلق عيسى من غير أب كصفة ءادم في كونه خلقه من تراب لا من أب وأمّ فمن أقرّ بأن الله خلق ءادم من التراب اليابس، وهو أبلغ في القدرة فلِمَ لا يقرَ بأن الله خلق عيسى من مريم من غير أب، بل الشأن في خلق ءادم أعجب

وأغرب، وتمّ الكلام عند قوله ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ لأنه تشبيه كامل.

ثم قال تعالى ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ فهو خبر مستأنف على جهة التفسير لحال خلق ءادم في كونه خلقه من تراب، أي قدّره جسدًا من طين ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ أي أنشأه خلقًا بالكلمة، وكذلك عيسى أنشأه خلقًا بالكلمة، فعلى هذا القول ذكروا في الآية إشكالًا، وهو أنه تعالى قال ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾.

فهذا يقتضي أن يكون خلق ءادم متقدمًا على قوله ﴿قَالَ لَهُۥ كُن﴾، ولا تكوين بعد الخلق، وأُجيب عن هذا الإشكال بأن الله تعالى أخبر بأنه خَلَقَهُ من تراب لا من ذكر وأنثى، ثم ابتدأ خبرًا ءاخر فقال: إني أخبركم أيضًا أني قلت له: ﴿كُن﴾ فكان، من غير ترتيب في الخلق كما يكون في الولادة. ويحتمل أن يكون المراد أنه تعالى خلقه جسدًا من تراب، ثم قال له: ﴿كُن﴾ بشرًا فكان فيصح النظم، فالآية كن تعبير عن خطاب الله الأزلي الذي به يوجد الأشياء وليس بحرف وصوت ولغة ولا بحروف متعاقبة لأن الله منزه عن التغير، والتلفظُ بـ «كن» من صفات المخلوقين، فتأتي الكاف أولًا ثم تنقضي ثم تأتي النون وهذه حروف متعاقبة وهي مخلوقة والله أزلي أبدي وكلامه أزلي أبدي، فمستحيل أن يتلفظ بكن لأنه لا يقال في حقه نطق أو تلفظ وإنما كن تعبير عن خطابه الذي هو قوله وهو كلامه وهو أمره وهو حكمه ففي الأزل حكم بأن يوجد ءادم من تراب وماء من غير أم ولا أب وبأن يوجد عيسى من أم دون أب فكانا ووجدا كما حكم الله في الأزل.

وقيل: الضمير في قوله: ﴿كُن﴾ يرجع إلى عيسى عليه السلام، وعلى هذا فلا إشكال في الآية. فإن قلت: كيف شبه عيسى عليه السلام بآدم عليه السلام؟ وقد وجد عيسى من غير أب ووُجِد ءادم من غير أب ولا أم؟ قلت: هو مثله في أحد الطرفين، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به، لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، ولأنه شُبّه به في أنه وُجِد وجودًا خارجًا عن العادة المستمرة. وهما في ذلك نظيران، لأن الوجود من غير أب وأم أغرب في العادة

من الوجود من غير أب، فشُبِّه الغريب بالأغرب، ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته، إذا نظر في ما هو أغرب مما استغربه، وقوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[1] قال ابن عباس: معناه: ﴿كُن﴾ فكان، فأُريد بالمستقبل الماضي. وقيل: معناه ﴿كُن﴾ واعلم يا محمد أن ما قال له ربك ﴿كُن﴾ فإنه يكون لا محالة ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الذي أخبرتك به من تمثيل عيسى بآدم هو الحق من ربك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي من الشاكّين، وهذا خطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته، لأنه ﷺ لم يشك قط، فهو كقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ والمعنى فلا تكن يا أيها السامع كائنًا من كان من الممترين، لهذا التمثيل والبرهان الذي ذكر، فهو من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة.

---

(١) قوله «كن فيكون» حكاية حال ماضية ولا قول هنا حقيقة وإنما ذلك على سبيل التمثيل وكناية عن سرعة الخلق والتمكن من إيجاد ما يريد تعالى إيجاده إذ المعدوم لا يمكن أن يؤمر.

فائدة عظيمة النفع

قال الإمام الحافظ المجتهد المجدد الحجة النحوي الفقيه الأصولي المتكلم المفسر العارف العابد الزاهد شيخ الإسلام عبد الله بن محمد بن يوسف الهرري الحبشي رضي الله عنه وأرضاه:

فإن قالوا أي المشبهة: دليلنا على أن كلام الله بالحرف والصوت قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس/ ٨٢].

فالجواب: لو كان الأمر كما تدعون لتناقضت هذه الآية مع غيرها من الآيات والقرءان يتعاضد ولا يتناقض.

وإنما معنى هذه الآية أن الله يوجد الأشياء بدون تعب ومشقة وبدون ممانعة أحدٍ له، أي أنه يخلق الأشياء التي شاء أن يخلقها بسرعة بلا تأخر عن الوقت الذي شاء وجودها فيه، فمعنى ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ يدل على سرعة الإيجاد وليس معناه كلما أراد الله خلق شىء يقول كن كن كن وإلا لكان معنى ذلك أن الله كل الوقت يقول كن كن كن وهذا محال لأن الله عز وجل يخلُقُ في اللحظة الواحدة ما لا يدخل تحت الحصر.

ثم كن لغة عربية والله تعالى كان قبل اللغات كلها وقبل أصناف المخلوقات فعلى قول المشبهة يلزم أن يكون الله ساكتًا قبل ثم صار متكلمًا وهذا محال لأن هذا شأن البشر وغيرهم، وقد قال أهل السنة: لو كان يجوز على الله أن يتكلم بالحرف والصوت لجاز عليه كل الأعراض من الحركة والسكون والبرودة واليبوسة والألوان والروائح والطعوم وغير ذلك وهذا محال، والله تعالى خلق بعض العالم متحركًا دائمًا كالنجوم وخلق بعض العالم ساكنًا دائمًا كالسموات، وخلق بعض العالم متحركًا في وقت وساكنًا في وقت وهم الإنس والجن والملائكة والرياح والنور والظلام والظلال، وهو سبحانه وتعالى لا يُشبه شيئًا من هذه العوالم كلها.

وقال بعض أهل السنة إن الله يخلق الخلق بكن أي بالحكم الأزلي بوجوده فالآية عندهم عبارة عن أن الله تعالى يخلق العالم بحكمه الأزلي، والحكم كلام أزلي في حق الله ليس كلامًا مركبًا من حروف ولا صوت.

وأما ما ذهبت إليه المجسمة من أن الله ينطق بالكاف والنون عند خلق كل فرد من أفراد المخلوقات فهو سفة لا يقول به عاقل لأنهم قالوا قبل إيجاد المخلوق ينطق الله بهذه الكلمة المركبة من كاف ونون فيكون خطابًا للمعدوم، وإن قالوا إنه يقول ذلك بعد إيجاد الشىء فلا معنى لإيجاد الموجود.

وأما التفسيران اللذان ذهب إليهما أهل السنة فإنهما موافقان للعقل والنقل، ثم إنه يلزم على قول المجسمة بشاعة كبيرة وهي أن الله تبارك وتعالى لا يتفرغ من النطق بكلمة كن وليس له فعل إلا ذلك، لأنه في كل لحظة يخلق ما لا يدخل تحت الحصر. فكيف يصح في العقل أن يخاطب الله كل فرد من أفراد المخلوقات بهذا الحرف.

كيف يُعقل أن ينطق الله تعالى بالكاف والنون بعدد كل مخلوق يخلقه فإن هذا ظاهر الفساد لأنه يلزم عليه أن يكون الله ليس له كلام إلا الكاف والنون: فما أبشع هذا الاعتقاد المؤدي إلى هذه البشاعة.

فالتفسيران الأولان أحدهما وهو الأول قال به الإمام أبو منصور الماتريدي والثاني قال به الأشاعرة كالبيهقي.

ثم إن الله ما وصف نفسه بالنطق إنما وصف نفسه بالكلام أي بأنه متكلم فلو كان كلام الله نطقًا لجاءت بذلك ءاية من القرءان.

والموجود في القرءان الكلام والقول وهما عبارة عن معنًى قائم بذات الله أي ثابت له، معناه الذكر والإخبار وليس نطقًا بالحروف والصوت.

وقد ألف الحافظ أبو المكارم المقدسي جزءًا في تضعيف أحاديث الصوت على وجه التحقيق، وقد صرح البيهقي رحمه الله بأنه لا يصح حديث في نسبة الصوت إلى الله.

وأما ما في كتاب فتح الباري في كتاب التوحيد من القول بصحة أحاديث الصوت فهو مردود وهو نفسه في كتاب العلم ذكر خلاف ما ذكره في كتاب التوحيد، على أنّ ما ذكره في كتاب التوحيد من إثبات الصوت قال إنه صوت قديم ولم يحمله على الظاهر الذي تقوله المشبهة من أنه صوت حادث يحدث شيئًا فشيئًا يتخلله سكوت فقد قال زعيم المشبهة ابن تيمية إن كلامه تعالى قديم النوع حادث الأفراد، ومثل ذلك قال في إرادة الله وكلا الأمرين باطل. والحافظ لا يعتقد قيام الحادث بذات الله، فشرحه هذا مشحون بذكر نفي الحركة والانتقال ونحو ذلك في مواضع كثيرة عن الله تعالى، فهو يؤول الأحاديث التي ظاهرها قيام صفة حادثة بذات الله على غير الظاهر.

ثم إنه يلزم من قول إن الله يخلق بلفظ كن الذي هو لفظ مركب من حرفين خلق المخلوق بالمخلوق وهذا محال، فالله إنّما يخلق المخلوقات بقدرته القديمة ومشيئته وعلمه القديم.

ثم إن القول بأن الله يتكلم بصوت مخالف لمعتقد أهل السنة الأشاعرة والماتريدية فليحذر.

ومن شاء الاطلاع على عدم صحة أي حديث في نسبة الصوت إلى الله فليطالع جزء أبي المكارم. ولا حجة للمشبهة الصوتية في ما رُوي من أن الله تعالى يقول بعد أن يقبض عزرائيل أرواح الخلق والملائكة ويقبض الله روح عزرائيل: لمن الملك اليوم فيجيب نفسه بنفسه: لله الواحد القهار، لأنه حديث ضعيف. يقال لهم أليس الله تعالى كان موجودًا قبل هذه الحروف فهي محدثة أحدثها هو فكيف يتصف الله بشىء محدث. بل قولكم فيه نسبة الحدوث إلى ذات الله لأن ما يتصف بالحادث فهو حادث وإنما تأويل ما ورد في القرءان من هذه الألفاظ هو أنها عبارة عن كلامه الازلي الأبدي.

فالكلام الأزلي يعبر عنه بلفظ الماضي وبلفظ المضارع وبلفظ الأمر فكلام الله

القائم بذاته غير متجزئ ولا متبعض كما أن حياته صفة قائمة بذاته لا تتجزأ ولا يتخللها انقطاع.

وأحسن منه من حيث الإسناد ما رواه أبو بكر عبد الله بن أبي داود في كتابه «البعث»[1] قال أخبرنا أبو بكر محمد قال حدثنا أبو بكر عبد الله بن أبي داود قال حدثنا الحسن بن يحيى بن كثير قال حدثنا أبي قال حدثنا سليم بن أخضر عن التيمي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: **ينادي منادٍ بين يدي الصيحة يا أيها الناس أتتكم الساعة** - ومد بها التيمي صوته - **قال فيسمعه الأحياء والأموات وينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا ثم ينادي مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار**»[2] اهـ.

وهذا سالم من نسبة النطق بالصوت إلى الله وهو عقيدة أهل التنزيه وهم أهل الإثبات والتنزيه، يثبتون لله ما أثبته لنفسه وما أثبته له نبيه مع تجنّب حمل النصوص على ظواهر المتشابه بل يعتقدون للمتشابه معاني تليق بالله ليس فيها إثبات صفة حادثة لله كما أنهم ينزّهون ذاته عن الحجمية والجسمية فينبغي أن لا يلتفت إلى ما يذكر في كثير من التفاسير من أن الله تعالى هو الذي يقول بعد فناء الخلق كلهم سوى الجن والملائكة مجيبًا لنفسه لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فإنه يتبادر إلى ذهن المطالع أن الله ينطق بالصوت في ذلك الوقت وهذا مما لا يجوز اعتقاده.

---

(١) البعث ص٢٦.

(٢) أخرج هذا الحديث الديلمي في فردوس الأخبار وعزاه السيوطي لابن أبي الدنيا في البعث وعزاه لعبد بن حميد في زوائد الزهد لابن أبي حاتم والحاكم وصححه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس موقوفًا عليه.

قوله عز وجل ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ أي فمن جادلك في عيسى. وقيل: في الحق ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ يعني بأن عيسى عبد الله ورسوله ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ﴾ أي هلموا والمراد منه المجيء وأصله من العلو بالرأي والعزم، كما تقول: تعالَ نتفكّر في هذه المسألة ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ أي يدع كلّ منا ومنكم أبناءه ﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ قيل: أراد بالأبناء الحسن والحسين، وبالنساء فاطمة وبالنفس نفسه ﷺ وعليًا رضي الله عنه. وقيل: هو على العموم لجماعة أهل الدين ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ قال ابن عباس: نتضرع في الدعاء. وقيل: معناه نجتهد ونبالغ في الدعاء. وقيل: معناه: نلتعن، والابتهال الالتعان. يقال: عليه بهلة الله أي لعنة الله ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يعني منّا ومنكم في أمر عيسى.

قال المفسرون: لما قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية على وفد نجران ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: حتى نرجع وننظر في أمرنا ثم نأتيك غدًا، فلما خلا بعضهم ببعض، قالوا للعاقب وكان كبيرهم وصاحب رأيهم: ما ترى يا عبد المسيح؟

قال: لقد عرفتم يا معشر النصارى، أن محمدًا نبي مرسل، ولئن فعلتم ذلك لتهلكنّ فإن أبيتم إلا الإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فودعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله ﷺ وقد احتضن الحسين، وأخذ بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه، وعلي يمشي خلفها، والنبي ﷺ يقول لهم: «إذا دعوت فأمّنوا» فلما رءاهم أسقف نجران قال: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهًا لو سألوا الله أن يزيل جبلًا لأزاله من مكانه فلا تبتهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة. فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نُباهلك، وأن نتركك على دينك وتتركنا على ديننا، فقال لهم رسول الله ﷺ: فإن أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم، فأبوا ذلك فقال: إني أُناجزكم، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكنّا نصالحك على أن لا تغزونا، ولا تخيفنا، ولا تردّنا عن ديننا، وأن نؤدّي إليك في كل سنة ألفي حلّة، ألفًا

في صفر وألفًا في رجب. زاد في رواية: وثلاثًا وثلاثين درعًا عادية، وثلاثًا وثلاثين بعيرًا، وأربعًا وثلاثين فرسًا غازية، فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك، وقال: **«والذي نفسي بيده إن العذاب تدلى على أهل نجران، ولو تلاعنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي نارًا، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر ولما حال الحَوْل على النصارى كلهم حتى هلكوا»** اهـ. فإن قلت: ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا لتبيين الصادق من الكاذب، وذلك يختصُّ به وبمن يُباهله، فما معنى ضم الأبناء والناس في المباهلة، قلت[1]: ذلك ءاكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه، حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحبّ الناس إليه، فلذلك ضمهم في المباهلة، ولم يقتصر على تعريض نفسه لذلك، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك الخصم، مع أحبته وأعزته هلاك استئصال لو تمَّت المباهلة. وإنما خصّ الأبناء والنساء لأنهم أعزّ الأهل وألصقهم بالقلب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، وإنما قدّمهم في الذِكر على النفس لينبّه بذلك على لطف مكانهم، وقرب منزلتهم، وفيه دليل قاطع وبرهان واضح على صحة نبوّة محمد ﷺ، لأنه لم يرو أحد من موافق ومخالف أنهم أجابوا إلى المباهلة، لأنهم عرفوا صحة نبوّته وما يدل عليها في كتبهم. قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعني الذي قصّ عليك يا محمد من خبر عيسى عليه السلام وأنه عبد الله ورسوله ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ وأصله من القصّ وهو تتبع الأثر، والقصص الخبر الذي تـتـتابع فيه المعاني ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إنما دخلت مِن لتوكيد النفي، والمعنى أن عيسى ليس بإله كما زعمت النصارى، ففيه ردٌّ عليهم وتكذيب جميع من ادّعى من المشركين أنهم ءالهة، وإثبات الإلـٰهية لله تعالى وحده لا شريك له في الإلوهية ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الغالب المنتقم ممن عصاه وخالف أمره وادّعى معه إلـٰهًا ءاخر ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ يعني في تدبيره وفيه رد على

(١) قاله النسفي في تفسيره.

النصارى لأن عيسى لم يكن كذلك ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يعني فإن أعرضوا عن الإيمان ولم يقبلوه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي الذين يعبدون غير الله ويدعون الناس إلى عبادة غيره، وفيه وعيد وتهديد لهم.

قوله عزّ وجلّ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قال المفسرون: لما قدم وفد نجران إلى المدينة اجتمعوا باليهود واختصموا في إبراهيم ﷺ فزعمت النصارى أنه كان نصرانيًا وهم على دينه وأولى الناس به، وقالت اليهود بل كان يهوديًا وهم على دينه وأولى الناس به، فقال رسول الله ﷺ: **«كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه بل كان حنيفًا مسلمًا وإنَّا على دينه فاتبعوا دينه الإسلام»** اهـ. فقال اليهود: ما تريد إلا أن نتخذك ربًّا كما اتخذت النصارى عيسى ربًّا. وقالت النصارى: يا محمد، ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير، فأنزل الله عز وجل ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟﴾ أي هلمّوا ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ فيها إنصاف ولا ميل فيها لأحد على صاحبه، والعرب تسمي كل قصة أو قصيدة لها أول وءاخر وشرح كلمةً ﴿سَوَآءٍۭ﴾ أي عدل لا يختلف فيها التوراة والإنجيل والقرءان، وتفسير الكلمة قوله ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وذلك أن النصارى عبدوا غير الله، وهو المسيح، وأشركوا به، وهو قولهم: أب، وروح القدس، فجعلوا الواحد ثلاثة، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وذلك أنهم كانوا يطيعونهم في ما يأمرونهم به من الشِرك ويسجدون لهم، فهذا معنى اتخاذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، فثبت أن النصارى قد جمعوا بين هذه الأشياء الثلاثة.

ومعنى الآية: قل يا محمد لليهود والنصارى هلمّوا إلى أمر عدل نصف وهو: أن لا نقول عزير ابن الله، ولا نقول المسيح ابن الله، لأن كل واحد منهما بشر مخلوق مثلنا، ولا نطيع أحبارنا ورهباننا في ما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع، ولا يسجد بعضنا لبعض، لأن السجود لغير الله حرام،

فلا نسجد لغير الله، وقيل: معناه ولا نطيع أحدًا في معصية الله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يعني فإن أعرضوا عمّا أمرتهم به ﴿فَقُولُوا﴾ أنتم لهؤلاء ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون بالتوحيد لله والعبادة له.

وعن ابن عباس أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجّارًا بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهو بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث مع دحية الكلبي إلى عظيم بُصرَى، فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلِم تَسْلَم يؤتِكَ الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين، و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾». لفظ الحديث هو أحد روايات البخاري. وقد أخرجه بأطول من هذا، وفي رواية: الأريسيين والأريس الأكار، وهو: الزرّاع والفلاح. وقيل: هم أتباع عبد الله بن أريس، رجل كان في الزمن الأول بعثه الله فخالفه قومه. وقيل: هم الأروسيون وهم نصارى أتباع عبد الله بن أروس وهم الأروسة. وقيل: هم الأريسون بضم الهمزة وهم الملوك الذين يخالفون أنبياءهم. وقيل: هم المتبخترون. وقيل: هم اليهود والنصارى الذين صددتهم عن الإسلام واتبعوك على كفرك.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [سورة ءال عمران/ ٨١].

الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم﴾ قرئ بفتح اللام من لما

وبكسرها مع التخفيف في القراءتين فمن قرأ بفتح اللام قال: معنى الآية وإذ أخذ الله ميثاق النبيين من أجل الذي ءاتاهم من كتاب وحكمة. يعني ذكر محمد ﷺ في التوراة ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ للذي عندكم في التوراة من ذكره ومن قرأ بكسر اللام جعل قوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ من أخذ الميثاق كما يقال أخذت ميثاقك لتفعلن لأن أخذ الميثاق بمنزلة الاستحلاف فيكون معنى الآية وإذ استحلف الله النبيين للذي أتاهم من كتاب وحكمة متى جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ولينصرنه وقوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يعني محمدًا ﷺ وذلك أن الله وصفه في كتب الأنبياء المتقدمة وشرح فيها أحواله فإذا جاءت صفاته وأحواله مطابقة لما في كتبهم المنزلة فقد صار مصدقًا لها فيجب الإيمان به والانقياد لقوله و«لام» قوله ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ لام القسم تقديره والله لتؤمنن به قال البغوي: قال الله عز وجل للأنبياء حين استخرج الذرية من صلب ءادم والأنبياء فيهم كالمصابيح أخذ عليهم الميثاق في أمر محمد ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية. وقال الإمام فخر الدين الرازي: يحتمل أن يكون هذا الميثاق ما قرر في عقولهم من الدلائل الدالة على أن الانقياد لأمر الله واجب، فإذا جاء رسول وظهرت المعجزات الدالة على صدقه، فإذا أخبرهم بعد ذلك أن الله أمر الخلق بالإيمان به عرفوا عند ذلك وجوبه بتقرير هذا الدليل في عقولهم فهذا هو المراد من الميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يعني قال الله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فإن فسرنا أن أخذ الميثاق كان من النبيين كان معناه قال الله تعالى للنبيين ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بالإيمان به والنصر له وإن فسرنا أن أخذ الميثاق كان على الأمم كان معناه قال كل نبي لأمته وإذا أخذ الله ميثاق النبيين. وذلك لأنه تعالى أضاف أخذ الميثاق إلى نفسه وإن كان النبيون أخذوه على الأمم فلذلك طلب هذا الإقرار وأضافه إلى نفسه وإن وقع من الأنبياء والمقصود أن الأنبياء بالغوا في إثبات هذا الميثاق وتأكيده على الأمم وطالبوهم بالقبول وأكدوا ذلك بالإشهاد ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي عهدي والإصر العهد الثقيل

وقيل سمي العهد إصرًا لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ أي وما أُوتي النبيّون ﴿مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ وذلك أن أهل الكتاب يؤمنون ببعض النبيّين ويكفرون ببعض، فأمر الله عزّ وجلّ نبيّه محمدًا ﷺ أن يخبر عن نفسه وعن أمته أنه يؤمن بجميع الأنبياء ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي موحدون مخلصون له، لا نجعل له شريكًا في عبادتنا ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾[سورة ءال عمران/ ٨٥] يعني أن الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام، وأن كل دين سواه غير مقبول عنده، لأن الدين الصحيح ما يأمر الله به ويرضى عن فاعله ويثيبه عليه ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ يعني الذين وقعوا في الخسارة وهو حرمان الثواب وحصول العقاب.

تفسير قوله تعالى ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾﴾[سورة النساء].

قوله تعالى ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ادّعت اليهود أنهم قتلوا عيسى عليه السلام، وصدَّقتهم النصارى على ذلك، فكذبهم الله عز وجل جميعًا، وردّ عليهم بقوله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ وفي قوله ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ قولان: أحدهما أنه من قول اليهود، فيكون المعنى أنه رسول الله على زعمه، والقول الثاني: أنه من قول الله لا على وجه الحكاية عنهم، وذلك أن الله تعالى أبدل ذكرهم في عيسى عليه السلام القول القبيح بالقول الحسن، رفعًا لدرجته عمّا كانوا يذكرونه من القول القبيح.

وقوله تعالى ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾ يعني شبّه عيسى على غيره، حتى قتل وصُلب. واختلف العلماء في صفة التشبيه الذي شبّه على اليهود في أمر عيسى عليه السلام. وهذه الحكاية والثلاثة التي تليها كلها ليست صحيحةً والصحيح

ما سيأتي بعد ذلك تحت عنوان فائدة أخرج ابن أبي حاتم والنسائي عن ابن عباس فتنبه لذلك. فروى الطبري بسنده عن وهب بن منبّه أنه قال: أتى اليهود عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صوّرهم الله تعالى كلَّهم على صورة عيسى، فقالوا لهم: سحرتمونا لتبرزنّ لنا عيسى أو لنقتلنّكم جميعًا، فقال عيسى لأصحابه: من يشتري نفسه منكم اليوم بالجنة؟ فقال رجل منهم: أنا، فخرج عليهم فقال: أنا عيسى، وقد صوّره الله تعالى على صورة عيسى، فأخذوه وقتلوه وصلبوه، فمن ثم شبّه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى، وظنت النصارى مثل ذلك، ورفع الله عزّ وجلّ عيسى عليه السلام من يومه ذلك.

وفي رواية أخرى عن وهب: أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه: ليكفرنّ بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وليبيعني بدراهم يسيرة وليأكلنّ ثمني فخرجوا وتفرقوا، وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين، فقالوا: هذا من أصحاب عيسى، فجحد وقال: ما أنا بصاحبه، فتركوه ثم أخذوا ءاخر فجحد كذلك، فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود وكان منافقًا، فقال: ما تجعلون لي إن أنا دللتُكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهمًا، فدلّهم عليه، فألقى الله شبه عيسى على ذلك المنافق الذي دلّ عليه، فأخذوه وقتلوه وصلبوه وهم ينظرون أنه عيسى. وقال قتادة: إن أعداء الله اليهود زعموا أنهم قتلوا عيسى وصلبوه. وذكر لنا أن نبيّ الله عيسى ابن مريم عليه السلام قال لأصحابه: أيكم يقذف عليه شبهي ولهُ الجنة فإنه مقتول، فقال رجل منهم: أنا يا نبيّ الله، فأُخذ ذلك الرجل وقُتل وصُلب، ورفع الله عزّ وجلّ عيسى إلى السماء.

وقيل: إن اليهود حبسوا عيسى في بيت وجعلوا له رقيبًا يحفظه، فألقى الله شبه عيسى على ذلك الرقيب، فأُخذ فقُتل وصُلب. فرفع الله عزّ وجلّ عيسى في ذلك الوقت. قال الطبري: وأولى الأقوال بالصواب ما ذكرنا عن وهب بن منبّه: من أن شبه عيسى أُلقي على جميع من كان مع عيسى في البيت حين أُحيط به وبهم من غير مسألة عيسى إياهم ذلك ولكن ليخزي الله بذلك اليهود وينقذ به نبيّه

عيسى عليه السلام من كل مكروه أرادوه به من قتل وغيره، وليبتلي الله من أراد ابتلاءه من عباده، ويحتمل أن يكون أُلقي شبهه على بعض أصحابه بعدما تفرق عنه أصحابه ورفع الله عيسى عليه السلام وبقي ذلك فأُخذ وقُتل وصُلب وظن أصحابه واليهود أن الذي قتلوه وصلبوه هو عيسى لما رأوا من شبهه به وخفي أمر عيسى عليهم وكان حقيقة ذلك الأمر عند الله فلذلك قال تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يعني في قتل عيسى وهم اليهود ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ يعني من قتله، وذلك أن اليهود قتلوا ذلك الشخص المشبّه بعيسى وكان قد أُلقي الشبه على وجه ذلك الشخص دون جسده، فلما قتلوه نظروا إلى جسده فوجدوه غير جسد عيسى فقالوا: الوجه وجه عيسى والجسد جسد غيره فهذا هو اختلافهم فيه.

وقيل: إن اليهود لما حبسوا عيسى وأصحابه في البيت دخل عليه رجل منهم ليخرجه إليهم، فألقى الله شبه عيسى على ذلك الرجل، فأُخذ وقُتل ورفع الله عزّ وجلّ عيسى إلى السماء وفقدوا صاحبهم، فقالوا: إن كنا قتلنا المسيح فأين صاحبنا؟ وإن كنّا قتلنا صاحبنا فأين المسيح عيسى؟ فهذا هو اختلافهم فيه.

وقيل: إن الذين اختلفوا فيه هم النصارى، فبعضهم يقول: إن القتل وقع على ناسوت عيسى دون لاهوته، وبعضهم يقول: وقع القتل عليهما جميعًا وبعضهم يقول رأيناه قتل وبعضهم يقول رأيناه رُفع إلى السماء، فهذا هو اختلافهم فيه، قال الله تعالى ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني أنهم قتلوا من قتلوا على شك منهم فيه ولم يعرفوا حقيقة ذلك المقتول هل هو عيسى أو غيره؟ ﴿إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ يعني لكن يتبعون الظن في قتله ظنًا منهم أنه عيسى لا عن علم وحقيقة.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ قال ابن عباس: يعني لم يقتلوا ظنهم يقينًا. فعلى هذا القول تكون الهاء في ﴿قَتَلُوهُ﴾ عائدة إلى الظنّ. والمعنى: ما قتلوا ذلك الظن يقينًا، ولم يزل ظنهم ولم يرتفع ما وقع لهم من الشبه في قتله، فهو كقول العرب: قتله علمًا

وقتله يقينًا، يعني علمه علمًا تامًّا، وأصل ذلك أن القتل للشىء يكون عن قهر واستيلاء وغلبة. ومعنى الآية على هذا: لم يكن علمهم بقتل عيسى علمًا تامًّا كاملًا إنما كان ظنًّا منهم أنهم قتلوه، ولم يكن لذلك حقيقة.

وقيل: إن الهاء في ﴿قَتَلُوهُ﴾ عائدة على عيسى، والمعنى: وما قتلوا المسيح يقينًا كما ادّعوا أنهم قتلوه.

وقيل: إن قوله ﴿قَتَلُوهُ﴾ يرجع إلى ما بعده وتقديره وما قتلوه ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾[1] والمعنى أنهم لم يقتلوا عيسى ولم يصلبوه، ولكن الله عزّ وجلّ رفعه إليه، وطهّره من الذين كفروا وخلّصه ممّن أراده بسوء.

وذكر شيخنا الحافظ الإمام العبدري الهرري الحبشي رضي الله عنه في كتابه الدليل القويم على الصراط المستقيم[2]:

فائدة: أخرج ابن أبي حاتم والنسائي عن ابن عباس قال[3]: كان عيسى مع اثني عشر من أصحابه في بيت فقال إن منكم من يكفر بي بعد أن ءامن، ثم قال أيكم يُلقى عليه شبهي ويُقتل مكاني فيكون رفيقي في الجنة، فقام شاب أحدثهم سنًّا فقال أنا قال اجلس، ثم عاد فعاد فقال اجلس، ثم عاد الثالثة فقال أنت هو، فألقي عليه شبهه، فأُخذ الشاب فصلب بعد أن رُفع عيسى عليه السلام من روزنة في البيت[4]، وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشاب[5].

وأما ما يرويه بعضهم من أن يهوديًا جاء مع اليهود ليدلهم ووعدوه مبلغ كذا

---

(١) أي إلى محل كرامته وهو السماء لأن السماء قبلة الدعاء ومسكن الملائكة ومهبط الرحمات والله لا يحتاج إلى المكان ولا يجري عليه زمان.

(٢) الدليل القويم على الصراط المستقيم (الطبعة ٤ ص٣٩٠/ ٣٩١).

(٣) رواه ابن ماجه في سننه (٦/ ٤٨٩):كتاب تعبير الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له، وأحمد في مسنده (٦/ ١١٠)، سنن النسائي الكبرى: كتاب التفسير: باب [﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾] (سورة الصف/ ١٤).

(٤) الروزنة نافذة في السطح يُصعد إليها تكون في زاوية من البيت.

(٥) هذا الحديث إسناده صحيح.

من المال ثم لما أدخلهم إلى البيت أُلقي عليه شبه المسيح فظنوه هو المسيحَ فقتلوه فهذا غير ثابت لكنه مشهور عند المؤرخين[1] والصحيح ما قاله عبد الله بن عباس رضي الله عنهما اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ يعني في اقتداره على من يشاء من عباده ﴿حَكِيمًا﴾ يعني في إنجاء عيسى عليه السلام وتخليصه من اليهود، وقيل ﴿عَزِيزًا﴾ يعني منيعًا منتقمًا من اليهود، فسلط عليهم ينطيونس بن اسبسيانوس الرومي فقتل منهم مقتلة عظيمة، ﴿حَكِيمًا﴾ حكم باللعنة والغضب على اليهود حيث ادّعوا هذه الدعوى الكاذبة، قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني وما من أحد من أهل الكتاب ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ يعني بعيسى عليه السلام وأنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته، هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ وذهب جماعة من أهل التفسير إلى أن الضمير يرجع إلى عيسى عليه السلام وهو رواية عن ابن عباس، والمعنى وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وذلك عند نزوله من السماء في ءاخر الزمان، فلا يبقى أحد من أهل الكتابين إلا ءامن بعيسى، حتى تكون الملّة واحدة وهي ملّة الإسلام.

قال عطاء: إذا نزل عيسى إلى الأرض لا يبقى يهودي ولا نصراني، ولا أحد يعبد غير الله إلا ءامن بعيسى، وأنه عبد الله وكلمته، ويدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**» اهـ. زاد في رواية: «**وحتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها**» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ اهـ. الآية. وفي رواية قال: قال رسول الله: «**لينزلنّ**

---

(1) انظر تفسير الخازن لباب التأويل (١/ ٦١٨).

فيكم ابن مريم حكمًا عادلًا فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية، وليتركن القلاص فلا يسعى عليها، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد» اهـ. أخرجاه في الصحيحين.

ففي هذا الحديث دليل على أن عيسى ينزل[1] في ءاخر الزمان في هذه الأمة، ويحكم بشريعة محمد ﷺ، وأنه لا ينزل نبيًّا برسالة مستقلة وشريعة ناسخة، بل يكون حاكمًا من حكام هذه الأمة وإمامًا من أئمتهم، لقوله ﷺ: «**فيكسر الصليب**» يعني يكسره حقيقة، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه، وكذلك قتله الخنزير، وقوله: ويضع الجزية يعني: لا يقبلها ممّن بذلها من اليهود والنصارى، ولا يقبل من أحدٍ إلا الإسلام أو القتل، وعلى هذا قد يقال: هذا خلاف ما هو حكم الشرع اليوم، فإن الكتابي اليوم إذا بذل الجزية وجب قبولها منه، ولم يجز قتله، ولا إجباره على الإسلام.

والجواب: أن هذا الحكم ليس مستمرًا إلى يوم القيامة، بل هو مقيد بما قبل نزول عيسى عليه السلام. وقد أخبر النبي ﷺ بنسخه، وليس الناسخ هو عيسى عليه السلام بل الناسخ لهذا الحكم هو نبيّنا محمد ﷺ، لأنه هو المبيّن للنسخ وأنّ عيسى عليه السلام يحكم بشريعة محمد، فدلّ على أن الامتناع من قبول الجزية في ذلك الوقت هو شرع نبيّنا محمد ﷺ والله أعلم.

قال الزجاج: هذا القول بعيد، يعني قول من قال إن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله في ءاخر الزمان، قال: لعموم قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ قال: والذين يبقون يومئذ يعني عند نزوله شرذمة قليلة منهم.

وأجاب أصحاب هذا القول يعني الذين يقولون: إن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله في ءاخر الزمان، بأن هذا على العموم ولكن المراد بهذا

(١) عيسى عليه السلام نبي رسول، لم يُنزع منه النبوة ولا الرسالة ولكنه ينزل مطبقًا لشريعة محمد ولا يأتي بشرع جديد ينسخ شرعة محمد.

العموم الذين يشاهدون ذلك الوقت ويدركون نزوله فيؤمنون به، ويكون معنى الآية: وما من أحدٍ من أهل الكتاب أدرك ذلك الوقت إلا ءامن بعيسى عند نزوله من السماء.

وصحّح الطبري هذا القول. وقال عكرمة في معنى الآية: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ﴾ بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي، فلا يموت يهودي ولا نصراني حتى يؤمن بمحمد ﷺ وذلك عند الحشرجة[1]، حتى لا ينفعه إيمانه.

قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يعني يكون عيسى عليه السلام شاهدًا على اليهود أنهم كذّبوه، وطعنوا فيه وعلى النصارى أنهم اتخذوه ربًّا وأشركوا بالله، ويشهد على تصديق من صدقه منهم وءامن به، قال قتادة: معناه أنه يكون شهيدًا يوم القيامة أنه بلغ رسالة ربه وأقر على نفسه بالعبودية.

تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة النساء].

قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ قال ابن عباس: قال سكين وعدي بن زيد: يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء من بعد موسى، فأنزل الله هذه الآيات.

وقيل: هو جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ: أن يُنزل عليهم كتابًا من السماء جملة واحدة فأجاب الله عزّ وجلّ عن سؤالهم بهذه الآية فقال ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ والمعنى إنكم يا معشر اليهود تقرّون بنبوّة نوح وجميع الأنبياء المذكورين في هذه الآية وهم اثنا عشر نبيًا، والمعنى أن الله تعالى أوحى إلى هؤلاء الأنبياء، وأنتم يا معشر اليهود معترفون بذلك، وما أنزل الله على أحد من هؤلاء المذكورين كتابًا جملة واحدة

(١) هي الغرغرة عند الموت، الصحاح في اللغة (١/ ١٣٠).

مثل ما أنزل على موسى فلمّا لم يكن عدم إنزال الكتاب جملة واحدة على أحد هؤلاء الأنبياء قادحًا في نبوّته فكذلك لم يكن إنزال القرءان على محمد ﷺ قادحًا في نبوّته، بل قد أُنزل عليه كما أُنزل عليهم.

قال المفسرون: وإنما بدأ الله عزَّ وجلَّ بذكر نوح عليه السلام لأنه أول نذير على الشرك، وأنزل الله عزّ وجلّ عليه عشر صحائف، وكان أول من عُذِبت أمته لردّهم دعوته، وأُهلك أهل الأرض بدعائه، وكان أبا البشر كآدم عليهما السلام، وكان أطول الأنبياء عمرًا، عاش أكثر من ألف سنة، ولم تنقص قوته ولم يشب ولم تنقص له سن وصبر على أذى قومه طول عمره، ثم ذكر الله الأنبياء من بعده جملة بقوله تعالى ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ ثم خصّ جماعة من الأنبياء بالذكر لشرفهم وفضلهم فقال ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ وهم من ذرية يعقوب، وكانوا اثنى عشر.

قال الألوسي[1] في تفسيره قال تعالى ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗا﴾ [سورة الأعراف/ ١٦٠] هذا صريح في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل وكل سبطة أمة، وقد صرحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل، وأصل السبط كما قال أبو سعيد الضرير: شجرة واحدة ملتفة كثيرة الأغصان فلا معنى لتسمية الأبناء الاثنى عشر أسباطًا قبل أن ينتشر عنهم الأولاد فتخصيص الأسباط في الآية بنبيه عليه السلام لصلبه غلط لا يدل عليه اللفظ ولا المعنى ومن ادَّعاه فقد أخطأ خطأ بيّنًا والصواب أيضًا أنهم إنما سموا أسباطًا من عهد موسى ومن حينئذ كانت فيهم النبوة.

﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ يعني وءاتينا داود كتابًا مزبورًا يعني مكتوبًا، وقيل: الزبور بالفتح اسم للكتاب الذي أُنزل على داود، وهو مائة وخمسون سورة، ليس فيها حُكْمٌ ولا حلال ولا حرام،

(١) تفسير الألوسي (٦/ ٣٧٦).

بل كلها تسبيح وتقديس وتمجيد وثناء على الله عز وجل ومواعظ، وكان داود عليه السلام يخرج إلى البرية فيقوم ويقرأ الزبور، وتقوم علماء بني إسرائيل خلفه، ويقوم الناس خلف العلماء، وتقوم الجن خلف الناس والشياطين خلف الجن، وتجيء الدواب التي في الجبال فيقمن بين يديه، وترفرف الطير على رؤوس الناس، وهم يستمعون لقراءة داود، ويتعجبون منها.

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك لقد أعطيت مزمارًا من مزامير ءال داود»** اهـ. رواه البخاري ومسلم. قال الحميدي: زاد البرقاني «قلت والله يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لقراءتي لحبّرتها لك تحبيرًا» اهـ. والتحبير تحسين الصوت بالقراءة.

قال بعض العلماء: إنما لم يذكر موسى في هذه الآية لأن الله أنزل عليه التوراة جملة واحدة، وكان المقصود بذكر من ذكر من الأنبياء في الآية أنه لم ينزل على أحد منهم كتابًا جملة واحدة فلهذا لم يذكر موسى عليه السلام.

تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة النساء].

قوله عزّ وجلّ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ يعني جحدوا نبوّة محمد ﷺ وهم اليهود، ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يعني منعوا غيرهم عن الإيمان بكتمان صفته وإلقاء الشُبهات في قلوب الناس. وهو قولهم: لو كان محمد رسولًا لأتى بكتاب من السماء جملة واحدة كما أتى موسى بالتوراة ﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ يعني عن طريق الهدى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ ﴾ يعني كفروا بالله وظلموا محمدًا ﷺ بكتمان صفته، وظلموا غيرهم بإلقاء الشبهة في قلوبهم ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ يعني لمن علم منهم أنهم يموتون على الكفر. وقيل: معناه لم يكن الله ليستر عليهم قبائح أفعالهم، بل يفضحهم في الدنيا ويعاقبهم عليها بالقتل والسبي والجلاء، وفي الآخرة بالنار وهو قوله تعالى ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ يعني ينجون فيه من النار.

وقيل: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ ﴾ إلى الإسلام لأنه قد سبق في علمه أنهم لا يؤمنون. ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ يعني لكنه تعالى يهديهم إلى طريق يؤدي إلى جهنم وهي اليهودية لما سبق في علمه أنهم أهل لذلك ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ يعني في جهنم ﴿أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ يعني هينًا.

قوله عزّ وجلّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ هذا خطاب عام يدخل فيه جميع الكفار من اليهود والنصارى وعبدة الأصنام وغيرهم ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ يعني محمدًا ﴿بِٱلْحَقِّ ﴾ يعني بدين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده وقيل جاء بالقرءان الذي هو الحق. ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ يعني فآمنوا بما جاءكم به محمد ﷺ يكن الإيمان بذلك خيرًا لكم يعني من الكفر الذي أنتم عليه ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ ﴾ يعني إن تجحدوا رسالة محمد ﷺ وتكذبوا بما جاءكم به من الحق من ربكم ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ يعني فإن الله هو الغني عن إيمانكم، لأن له ما في السموات والأرض ملكًا وعبيدًا، ومن كان كذلك لم يكن محتاجًا إلى شيء، وهو قادر على ما يشاء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ يعني بما يكون منكم لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده، فيجزي كل عامل بعمله ﴿حَكِيمًا ﴾ يعني في تكليفكم مع علمه بما يكون منكم.

قوله عزّ وجلّ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ نزلت هذه الآية في النصارى، وذلك أن الله تعالى لما أجاب عن شبه اليهود، أتبع ذلك بإبطال ما تعتقده النصارى، وأصناف النصارى أربعة: اليعقوبية والملكانية والنسطورية والمرقوسية. فأما اليعقوبية والملكانية فقالوا في عيسى إنه الله، وقالت النسطورية إنه ابن الله، وقالت المرقوسية: ثالث ثلاثة.

وقيل: إنهم يقولون إن عيسى جوهر واحد وهو ثلاثة أقانيم، أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس، وإنهم يريدون بأقنوم الأب الذات، وبأقنوم الابن عيسى، وبأقنوم روح القدس الحياة الحالة فيه، فتقديره عندهم الإلـٰه ثلاثة. وقيل إنهم يقولون في عيسى ناسوتية وأُلوهية، فناسوتيته من قبل الأم، وأُلوهيته من قبل الأب، تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

يقال إن الذي أظهر هذا للنصارى رجل من اليهود يقال له بولص تنصّر ودسَّ هذا في دين النصارى ليضلّهم بذلك.

وقيل يحتمل أن يكون المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى جميعًا، فإنهم غَلَوا في أمر عيسى عليه السلام، فأما اليهود فإنهم بالغوا في التقصير في أمره حتى حطّوه عن منزلته، حيث جعلوه مولودًا لغير رشده، وغلت النصارى في رفع عيسى عن منزلته ومقداره حيث جعلوه إلـٰهًا فقال الله تعالى ردًّا عليهم جميعًا:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ وأصل الغلو مجاوزة الحد، وهو في الدين حرام، والمعنى لا تفرطوا في أمر عيسى، فلا تحطّوه عن منزلته، ولا ترفعوه فوق قدره ومنزلته ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ يعني لا تقولوا إنّ له شريكًا وولدًا، وقيل: معناه لا تصفوه بالحلول والاتحاد في بدن الإنسان، ونزّهوا الله تعالى عن ذلك. ولما منعهم الله من الغلوّ في دينهم، أرشدهم إلى طريق الحق في أمر عيسى عليه السلام، فقال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ يقول إنما المسيح هو عيسى ابن مريم ليس له نسب غير هذا، وإنه رسول الله، فمن زعم غير

هذا فقد كفر وأشرك ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ هي قوله تعالى ﴿كُن﴾ فكان بشرًا من غير أب ولا واسطة ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ يعني أوصلها إلى مريم ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أضافه إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم، كما يقال: بيت الله، وناقة الله، وهذه نعمة من الله يعني أنه تفضل بها وإلا فروح المسيح كسائر الأرواح من كونها مخلوقة لله.

وقيل: الروح هو الذي نفخ فيه جبريل في جيب درع مريم، فحملت بإذن الله، وإنما أضافه إلى نفسه بقوله ﴿مِّنْهُ﴾ لأنه وجد بأمر الله.

فالروح عبارة عن نفخ جبريل عليه السلام، وقوله ﴿مِّنْهُ﴾ يعني أن ذلك النفخ كان بأمر الله وبإذنه.

وقيل: أتى بقوله ﴿وَرُوحٌ﴾ نكرة على سبيل التعظيم. والمعنى روح وأي روح من الأرواح القدسية العالية المطهرة. وقوله ﴿مِّنْهُ﴾ إضافته تلك الروح إلى نفسه لأجل التشريف والتكريم. عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «**من شهد إن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**» اهـ. رواه البخاري وغيره.

وقوله تعالى ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ يعني فصدقوا يا أهل الكتاب بوحدانية الله وأنه لا ولد له، وصدقوا رُسُله في ما جاؤوكم به من عند الله، وصدّقوا بأن عيسى عليه السلام من رسل الله فآمنوا به ولا تجعلوه إلـٰهًا.

وقوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ يعني ولا تقولوا الآلهة ثلاثة، وذلك أن النصارى يقولون: أب وابن وروح القدس. وقيل: إنهم يقولون إن الله بالجوهر ثلاثة أقانيم، وذلك أنهم أثبتوا ذاتًا موصوفة بصفات ثلاثة، بدليل أنهم يجوّزون على تلك الذات الحلول في عيسى وفي مريم فأثبتوا ذواتًا متعددة ثلاثة وهذا هو محض الكفر فلهذا قال الله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ يعني يكون الانتهاء عن هذا القول خيرًا لكم من القول بالتثليث، ثم نزّه الله تعالى نفسه

عن قول النصارى بالتثليث فقال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ثم نزّه نفسه عن الولد فقال ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ يعني لا ينبغي أن يكون له ولد، لأن الولد جزء من الأب وتعالى الله عن التجزئة وعن صفات الحدوث ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أنه تعالى له مُلْكُ السموات والأرض، وما فيهما عبيده ومُلكه، وعيسى ومريم من جملة من فيهما فهما عبيده ومُلكه، فإذا كانا عبدين له فكيف يعقل مع هذا أن له ولدًا وزوجة؟! تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. وهذ بيان لتنزيهه مما نُسب إليه من الولد، والمعنى أن جميع ما في السموات والأرض خلقه ومُلكه، فكيف يكون بعض مُلكه جزءًا منه؟! لأن التجزئة إنما تصح في الأجسام، والله تعالى منزّه عن صفات الأعراض والأجسام ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ يعني أنه تعالى كافٍ في تدبير جميع خلقه فلا حاجة له إلى غيره، وكلّ الخلق محتاجون إليه وفقراء إليه، وهو غنيٌّ عنهم.

وقوله تعالى ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ وذلك أن وفد نجران قالوا: يا محمد إنك تعيب صاحبنا فتقول إنه عبد الله، فقال النبي ﷺ «**إنه ليس بعار على عيسى أن يكون عبد الله**» رواه ابن مردويه وابن الأثير في النهاية. فنزلت ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ يعني لن يأنف ولن يتعظم، والاستنكاف الاستكبار مع الأنفة، يُقال: نكفت من كذا واستنكفت منه أي أنفت منه، وأصله من نكفت الشيء نحيته، ونكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك من خدك، والمعنى لن ينقبض ولن يمتنع ولن يأنف المسيح أن يكون عبد الله ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني ولن يستنكف الملائكة المقربون والكروبيون[1]. عن عبد الله بن عمر قال: «إن الله جزَّأ الملائكة عشرة أجزاء تسعة منهم الكروبيون الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون» وهم حملة العرش والكروبيون من أفاضل الملائكة مثل جبريل وهو رئيسهم وأفضلهم وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل فهؤلاء لن يستنكفوا

(١) هم من الطبقة العليا في الملائكة، من خواص الملائكة.

يكونوا عبيدًا لله، لأنهم في مُلكه ومن جملة خلقه.

وقيل: لما ادّعت النصارى في عيسى أنه ابن الله، وذلك لما رأوا منه خوارق العادات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من المعجزات، أجاب الله تعالى عن هذه الشُبهات التي وقعت للنصارى، بأن عيسى مع شرف قدره وكرامته لن يستنكف أن يكون عبدًا لله، وكذلك الملائكة المقربون، فإنهم مع كرامتهم وعلوّ منزلتهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدًا لله. وقد يستدل بهذه الآية من يقول بتفضيل الملائكة على البشر، ووجه الدليل أن الله تعالى ارتقى من عيسى إلى الملائكة ولا يرتقى إلّا من الأدنى إلى الأعلى ولا حجة لهم فيه، والجواب عنه: أن الله تعالى لم يقل ذلك رفعًا لمقامهم على مقام البشر، بل قاله ردًّا على من يقول إن الملائكة بنات الله، أو إنهم ءالهة، كما ردّ على النصارى قولهم إن المسيح ابن الله، وقاله أيضًا ردًّا على النصارى فإنهم يقولون بتفضيل الملائكة، يعني كما أن المسيح عبد الله فكذلك الملائكة عبيدٌ لله.

تفسير قوله تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة المائدة].

قوله عزّ وجلّ ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يعني وعقّبنا على ءاثار النبيّين الذين أسلموا ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ﴾ يعني أن عيسى عليه السلام كان مصدّقًا بأن التوراة مُنزلة من عند الله عزّ وجلّ وكان العمل بها واجبًا قبل ورود النسخ عليها، فإن عيسى عليه السلام نسخ بعض أحكام التوراة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ يعني فيه هدى من الجهالة وضياء من عمى البصيرة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ هذا ليس بتكرار للأول، لأن في الأول الإخبار بأن عيسى مصدّق لما بين يديه من التوراة، وفي الثاني الإخبار بأن الإنجيل مصدّق لما بين يديه من التوراة، فظهر الفرق بين اللفظين وأنه ليس

بتكرار ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إنما قال ﴿وَهُدًى﴾ مرة أخرى لأن الإنجيل يتضمن البشارة بمحمد ﷺ فيكون سببًا لاهتداء الناس إلى نبوّة محمد ﷺ، وأما كون الإنجيل هو عظة فلما فيه من المواعظ البليغة والزواجر والأمثال وإنما خصّ المتّقين بالذكر، لأنهم هم الذين ينتفعون بالمواعظ.

تفسير قوله تعالى ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾ [سورة المائدة].

قوله عزّ وجلّ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ قال ابن عباس: هؤلاء نصارى نجران فإنهم قالوا هذه المقالة وهو مذهب اليعقوبية والملكانية من النصارى، لأنهم يقولون بالحلول وأن الله قد حلَّ في بدن عيسى فلما كان اعتقادهم ذلك لا رَيْبَ أنْ حكم الله عليهم بالكفر ثم ذكر الله ما يدل على فساد مذهبهم فقال تعالى ﴿قُلْ﴾ يعني يا محمد لهؤلاء النصارى الذين يقولون هذه المقالة ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ يعني يقدر أن يدفع ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يعني من أمر الله شيئًا ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ﴾ يعني يُعدِم المسيح وأمه ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ووجه الاحتجاج على النصارى بهذا أن المسيح لو كان إلـٰهًا كما يقولون لقدر على دفع أمر الله إذا أراد إهلاكه وإهلاك أمه وغيرها ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إنما قال ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ولم يقل وما بينهنّ لأنه أراد ما بين هذين النوعين أو الصنفين من الأشياء فإنها ملكه وأهلها عبيده، وعيسى وأمه من جملة عبيده ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني من غير اعتراض عليه في ما يخلق لأنه خلق ءادم من غير أب وأم، وخلق عيسى من أم بلا أب، وخلق سائر الخلق من أب وأم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني أن الله تعالى لا يعجزه شىء أراده فلا اعتراض

لأحد من خلقه عليه.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة المائدة].

قوله تعالى ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ لما حكى الله عن اليهود ما حكاه من نقضهم الميثاق وقتلهم الأنبياء وتكذيبهم الرُسُل وغير ذلك، شَرَعَ في الإخبار عن كفر النصارى وما هم عليه من فساد الاعتقاد فقال تعالى ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ لأنهم يقولون إن مريم ولدت إلـٰهًا، ولأنهم يقولون إن الإلـٰه جلّ وعلا حلّ في ذات عيسى واتّحد به فصار إلـٰهًا، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ يعني وقد كان المسيح قال هذا لبني إسرائيل عند مبعثه إليهم، وهذا تنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى، ذلك لأنه عليه السلام لم يفرّق بينه وبين غيره في العبودية، والإقرار لله بالربوبية

وأن دلائل الحدوث ظاهرة عليه ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ يعني أنه من يجعل له شريكًا من خلقه فقد حرّم الله عليه الجنة، يعني إذا مات على شركه ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ يعني أنه يصير إلى النار في الآخرة ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني وما للمشركين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ يعني ما لهم من أنصار ينصرونهم ويمنعونهم من العذاب يوم القيامة، وقال تعالى ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ وهذا قول: المرقوسية والنسطورية من النصارى وزعموا أن الأب إلٰه والابن إلٰه والروح إلٰه وثلاثتهم واحد.

واعلم أن هذا الكلام معلوم البطلان ببديهة العقل فإن الثلاثة لا تكون واحدًا، والواحد لا يكون ثلاثة، ومن أعجب ما ترى في الدنيا فسادًا وبطلانًا مقالة النصارى، ولهذا أخبر الله عنهم في قوله ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ فهذا معنى مذهبهم وإن لم يصرّحوا بأنه واحد من ثلاثة ءالهة، فذلك لازم لقولهم، وإنما يمتنعون من هذه العبارة، لأنهم إذا قالوا: إن كل واحد من الأقانيم إلٰه، فقد جعلوه ثالث ثلاثة وقولهم بعد هذا هو إلٰه واحد فيه مناقضة لما قالوا أوّلًا، فهذا بيان فساد قول النصارى، ثم ردّ الله عليهم فقال تعالى ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ يعني أنه تعالى إلٰه واحد موصوف بالوحدانية لا ثاني له، ولا شريك له، ولا والد له، ولا ولد له، ولا صاحبة له.

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ يعني وإن لم ينته النصارى عن هذه المقالة الخبيثة ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني ليصيبنّ الذين أقاموا على هذا القول الخبيث وهذا الدين الذي ليس بمرضي عذاب وجيع في الآخرة، وإنما قال تعالى ﴿مِنْهُمْ﴾ لعلمه السابق أن من النصارى من سيؤمن ويخلص ويترك هذا القول ويعلم أنه فاسد، قيل ثم ندب سائر النصارى إلى التوبة من هذه المقالة الخبيثة فقال تعالى ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني من قولهم بالتثليث ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ وهذا استفهام بمعنى الأمر، أي توبوا إلى الله واستغفروه من

هذا الذنب العظيم بالنطق بالشهادتين والدخول في الإسلام وليس بقول أستغفر الله لأن الكفر والشرك يغفر بالشهادتين وليس بقول أستغفر الله فإنه تعالى يغفر الذنوب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ يعني لمن استغفره وتاب إليه ﴿رَّحِيمٌ﴾ به وبسائر خلقه.

قوله تعالى ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ يعني المسيح رسول من الله عزّ وجلّ، ليس بإله، كما أن الرُسل الذين كانوا من قبله لم يكونوا ءالهة، وقد أتى عيسى عليه السلام بالمعجزات الدَّالة على صدقه، كما أن الذين من قبله أتوا بالمعجزات الدالّة على صدقهم ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ يعني أنها كثيرة الصدق، وقيل: سُميت مريم صدّيقة: لأنها صدّقت بآيات ربها وكتبه وهي صيغة مبالغة.

وقوله تعالى ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ فيه احتجاج على فساد قول النصارى بإلهية المسيح، قيل: يعني أن المسيح وأمه مريم كانا بشرَيْن يأكلان الطعام ويعيشان به كسائر بني ءادم، فكيف يكون إلـٰـهًا من يحتاج إلى الطعام ولا يعيش إلّا به؟! وقيل معناه أنه لو كان إلـٰـهًا كما يزعمون لدفع عن نفسه ألم الجوع وألم العطش، ولم يوجد ذلك، فكيف يكون إلـٰـهًا؟! وقيل: هذا كناية عن الحدث، وذلك أن كلّ من أكل وشرب في الدنيا لا بد له من الغائط والبول، ومن كانت هذه صفته فكيف يكون إلـٰـهًا؟! وبالجملة فإن فساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج إلى إقامة دليل عليه.

ثم قال تعالى ﴿ٱنظُرْ﴾ الخطاب للنبي، أي انظر يا محمد ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يعني الدّالة على بُطلان قولهم ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف ينصرفون عن استماع الحق وقبوله.

قوله تعالى ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الخطاب للنبي محمد ﷺ، أي قل يا محمد لهؤلاء النصارى أتعبدون من دون الله ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا

﴿نَفۡعٗاۚ﴾ يعني لا يستطيع أن يضرّكم بمثل ما يضرّكم الله به من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال، ولا يقدر أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من صحة الأبدان وسعة الأرزاق، فإن الضار والنافع هو الله تعالى، لا من تعبدون من دونه، ومن لا يقدر على النفع والضر لا يكون إلـٰها ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ يعني أنه تعالى سميع لأقوالكم وكفركم، عليم بما في ضمائركم.

قوله عزّ وجلّ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ الغلوّ مجاوزة الحد. وذلك أن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط، فمجاوزة الحد في الزيادة والتقصير مذمومان في الدين، ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ يعني لا تغلوا في دينكم غلوًّا باطلًا غير الحق، وذلك أنهم خالفوا الحق في دينهم ثم غلوا في الإصرار عليه، وكلا الفريقين من اليهود والنصارى غلوا في عيسى عليه السلام، أما غلو اليهود فالتقصير في حقه حتى نسبوه إلى غير رشده، وأما غلو النصارى فمجاوزة الحد في حقه، حتى جعلوه إلههم، وكلا الغلوين مذمومات ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ الأهواء جمع هوى، وهو ما تدعو شهوة النفس إليه. قال الشعبي: ما ذكر الله تعالى الهوى في القرءان إلا وذمّه. والخطاب في قوله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ﴾ لليهود والنصارى الذين كانوا في زمان رسول الله، نهوا عن اتباع أسلافهم في ما ابتدعوه من الضلالة بأهوائهم، وهو المراد بقوله ﴿أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ فبيّن الله تعالى أنهم كانوا على ضلالة ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ يعني من اتبعهم على ضلالتهم وأهوائهم ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني وأخطؤوا عن قصد طريق الحق،والهوى المذموم هو ما تميل إليه النفس مما يخالف الشرع وهو الذي ذمّه الله وذمّه الرسولُ ﷺ.

قوله تعالى ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾ قال أكثر المفسرين: هم أصحاب السبت، لما اعتدوا في السبت واصطادوا الحيتان فيه قال داود عليه السلام: «اللهم العنهم واجعلهم قردة» فمسخوا قردة، وقصتهم

في سورة الأعراف. ﴿وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ يعني وعلى لسان عيسى ابن مريم، وهم كفار أصحاب المائدة، لما أكلوا منها وادّخروا ولم يؤمنوا، قال عيسى عليه السلام: «اللهم العنهم واجعلهم خنازير» فمسخوا خنازير، وستأتي قصتهم.

وقال بعض العلماء: إن اليهود كانوا يفتخرون بآبائهم ويقولون: نحن من أولاد الأنبياء عليهم السلام، فأخبر الله تعالى بأنهم ملعونون على ألسنة الأنبياء عليهم السلام. وقيل: إن داود وعيسى بشّرا بمحمد ﷺ ولعنا من يكفر به، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يعني ذلك اللعن بسبب عصيانهم واعتدائهم، ثم فسر الاعتداء والمعصية فقال تعالى ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضًا عن منكر، وقيل: معناه لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، ولا عن الإصرار عليه ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ اللام في ﴿لَبِئْسَ﴾ لام القسم وقيل هذه اللام ابتدائية وهي تفيد التأكيد، أي أقسم ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يعني من ارتكاب المعاصي والعدوان. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتقِ الله ودَعْ ما تصنع فإنه لا يحلّ لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض** ثم قال ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَٰسِقُونَ﴾ ثم قال: **كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ثم لتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا ولتقصرنه على الحق قصرًا**» اهـ. زاد في رواية: «**أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ثم يلعنكم كما لعنهم**» اهـ. أخرجه أبو داود والترمذي وأخرج الترمذي عنه فقال: قال رسول الله ﷺ: «**لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم**

علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وءاكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون – وجلس رسول الله ﷺ وكان متكئًا – فقال: **لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرًا**» اهـ.

قال الترمذي: هذا الحديث حسن غريب، قوله: أكيله وشريبه وقعيده: هو المؤاكل والـمُشارب والـمُقاعد، فعيل بمعنى فاعل، قوله لتأطرنه الأطر العطف، يعني لتعطفنه ولتردنه إلى الحق الذي خالفه، والقصر القهر على الشىء اهـ.

تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة المائدة].

قوله عزّ وجلّ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ قال بعضهم ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾ صلة لـ ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ ولـمّا كان المراد بقوله للرسل ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ توبيخ الأمم المكذّبة، ومن تمرد منهم على الله، وكان أشد الأمم احتياجًا وافتقارًا إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام، ووجه ذلك أن جميع الأمم إنما كان طعنهم في أنبيائهم بالتكذيب لهم، وطعن هؤلاء النصارى تعدى إلى جلال الله تعالى، حيث وصفوه بما لا يليق بجلاله، من اتخاذ الزوجة والولد، ذكر الله في هذه الآية أنواع نعمه على عيسى عليه السلام، التي تدل على أنه عبدٌ وليس بإله، والفائدة في ذكر هذه الحكاية تنبيه النصارى على قُبْح مقالتهم، وفساد اعتقادهم، وتوكيد الحجة عليهم.

وقيل فائدة ذلك إسماع الأمم يوم القيامة ما خصّ الله عيسى عليه السلام به من الكرامة.

وقيل: موضع إذا رفع بالابتداء على القطع ومعناه اذكر ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾ وإنما خُرّج قوله ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ على لفظ الماضي دون المستقبل لأنه ورد على سبيل حكاية الحال.

وقيل: تقديره ﴿إِذْ﴾ يقول الله ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ لفظه واحد والمراد به الجمع لأن الله تعالى عدّد نعمه عليه في هذه الآية، والمراد من ذكرها شكرها ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ يعني وبنعمته على مريم عليها السلام من أنه تعالى أنبتها نباتًا حسنًا، وطهّرها، واصطفاها على نساء العالمين، ثم ذكر نعمه على عيسى عليه السلام فقال تعالى ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني بجبريل عليه السلام، وأضافه إليه على سبيل التشريف والتعظيم، كإضافة بيت الله، وناقة الله، وقيل أراد بروح القدس: الروح المطهرة، لأن الأرواح تختلف باختلاف الماهية فمنها روح طاهرة مقدسة نورانية، ومنها روح خبيثة كدرة ظلمانية، فخصّ الله عيسى بالروح المقدسة الطاهرة النورانية المشرّفة ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ يعني

تكلمهم طفلًا في حال الصغر ﴿وَكَهْلًا﴾ يعني وفي حالة الكهولة من غير أن يتفاوت كلامك في هذين الوقتين، وهذه معجزة عظيمة وخاصّة شريفة ليست لأحد قبله، قال ابن عباس: «أرسل الله عيسى عليه السلام وهو ابن ثلاثين سنة، فمكث في رسالته ثلاثين شهرًا، ثم رفعه الله إليه» اهـ.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني الكتابة وهي الخط، والحكمة الفهم والاطلاع على أسرار العلوم ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي وعلَّمتك التوراة التي أنزلتها على موسى، والإنجيل الذي أنزلته عليك ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ يعني وإذ تصوّر من الطين كصورة الطير بإذني ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ ذكر هنا ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ وفي سورة ءال عمران ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ فالضمير في قوله ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى الهيئة بجعلها مصدرًا، كما يقع اسم الخلق على المخلوق، وذلك لأن النفخ لا يكون في الهيئة، إنما يكون في المهيأ ذي الهيئة ويجوز أن يعود الضمير إلى الطير لأنها مؤنثة، قال الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ ﴿١٩﴾﴾ [سورة تبارك] وأما الضمير المذكور في ءال عمران في قوله فيه فيعود إلى الكاف، يعني في ذلك الشىء المماثل لهيئة الطير ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ وإنما كرر قوله ﴿بِإِذْنِى﴾ تأكيدًا لكون ذلك الخلق واقعًا بقدرة الله تعالى وتخليقه، لا بقدرة عيسى عليه السلام وتخليقه، لأن المخلوق لا يخلق شيئًا، إنما خالق الأشياء كلها هو الله تعالى، لا خالق لها سواه، وإنما كان الخلق لهذا الطير معجزة لعيسى عليه السلام أكرمه الله تعالى بها، وكذا قوله تعالى ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ يعني وتشفي الأكمه وهو الأعمى المطموس البصر، والأبرص من به مرض البرص وهو من بجلده بقع بيضاء تخالف لون سائره ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني من قبورهم أحياء ﴿بِإِذْنِى﴾ تفعل ذلك كلّه بدعائك، والفاعل لهذه الأشياء كلها في الحقيقة هو الله تعالى لأنه هو المبرئ للأكمه والأبرص، وهو مُحيي الموتى، وهو على كل شىء قدير، وإنما كانت هذه الأشياء معجزات لعيسى عليه السلام ووقعت بإذن الله تعالى وقدرته، وقوله تعالى ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾

يعني واذكر نعمتي عليك إذ كففت وصرفت عنك اليهود، ومنعتك منهم حين أرادوا قتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التي ذكرت في هذه الآية، وذلك أن عيسى عليه السلام لما أتى بهذه المعجزات العجيبة الباهرة، قصد اليهود قتله فخلصه الله منهم ورفعه إلى السماء. ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ يعني فقال الذين استمروا على كفرهم من اليهود ولم يؤمنوا بهذه المعجزات ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني ما جاءهم به عيسى عليه السلام من المعجزات.

قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ يعني ألهمتهم وقذفت في قلوبهم، فهو وحي إلهام، كما أُوحي إلى أم موسى وإلى النحل، والحواريون هم أصحاب عيسى وخواصّه ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ يعني عيسى عليه السلام ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ لما وفقهم الله للإيمان وإنما قدّم ذكر الإيمان على الإسلام، لأن الإيمان من أعمال القلوب، والإسلام هو الانقياد والخضوع في الظاهر، والمعنى أنهم ءامنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم.

قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قال المفسرون[1]: هذا على المجاز، ولا يجوز لأحد أن يتوهم على الحواريين أنهم شكوا في قدرة الله تعالى، لكنه كما يقول الرجل لصاحبه هل تستطيع أن تقوم معي؟ مع علمه بأنه يقدر على القيام، فكذلك معنى الآية، لأن الحواريين كانوا مؤمنين عارفين بالله عزّ وجلّ، ومعترفين بكمال قدرته، وإنما قالوا ذلك ليحصل لهم مزيد الطمأنينة.

كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ أي هل أُعطى أن أرى ما طلبته وهو كيفية إحياء الموتى ومن ظن أن إبراهيم شك في قدرة الله فهو كافر

---

(١) قرأ الكسائي «هل تستطيع «بالتاء» ربَّكَ «بنصب الباء وهو قراءة علي وعائشة وابن عباس ومجاهد، أي هل تستطيع أن تدعو وتسأل ربك وقرأ الآخرون هل «يستطيع» بالياء و«ربك» برفع الباء معناه هل ينزل ربك أم لا... تفسير البغوي (٣/ ١١٧).

[سورة البقرة/ ٢٦٠] ولا شك أن مشاهدة هذه الآية العظيمة تورث مزيد الطمأنينة في القلب، ولهذا السبب قالوا ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾.

وقيل في معنى الآية: هل يقبل ربك دعاءك، ويعطيك بإجابة دعائك وسؤالك إنزال المائدة؟ فقد ورد في الآثار: «من أطاع الله أطاعه كل شيء» أي ذلل الله له الصعاب وقرّب له البعيد.

﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المائدة الخِوان الذي عليه الطعام، ولا يسمى مائدة إن لم يكن عليه طعام، إنما يقال خِوان أو طبق، وأصلها من مادَ يميد إذا تحرك كأنها تميد بما عليها من الطعام قال يعني عيسى مجيبًا للحواريين ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني اتقوا الله في هذا السؤال إن كنتم مؤمنين، وقيل: أمرهم بالتقوى ليحصل لهم هذا السؤال، ومعنى ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدّقين، فلا تشكُّوا في قدرة الله تعالى.

وقيل: معناه اتقوا الله أن تسألوه شيئًا لم يسأله أحد من الأمم قبلكم، فنهاهم عن اقتراح الآية بعد الإيمان ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ يعني قال الحواريون مجيبين لعيسى عليه السلام: إنما نطلب نزول المائدة علينا لأن نأكل منها فإن الجوع قد غلب علينا. وقيل: معناه نريد أن نأكل منها للتبرّك بها لا أكل حاجة ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ يعني وتسكن قلوبنا ونستيقن قدرة الله تعالى، لأنّا وإن علمنا قدرة الله بالدليل فإذا شاهدنا نزول المائدة ازداد اليقين وقويت الطمأنينة ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ يعني ونزداد إيمانًا ويقينًا بأنك رسول الله ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يعني لله بالوحدانية، ولك بالرسالة والنبوّة، وقيل: معناه ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم. فلما قالوا ذلك أمرهم عيسى أن يصوموا ثلاثين يومًا، وقال لهم: «إنكم إذا صمتم ذلك وأفطرتم فلا تسألون الله شيئا إلا أعطاكم» اهـ. ففعلوا ذلك، وسألوا نزول المائدة، فعند ذلك ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ﴾ قيل: إنه اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين وطأطأ

رأسه وبكى ثم دعا فقال اللهم ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ يعني عائدة من الله علينا وحجة وبرهانًا، والعيد يوم السرور، وأصله من عاد يعود إذا رجع، والمعنى نتخذ ذلك اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيدًا لعظمه، ونصلي فيه نحن ومن يجيء من بعدنا، فنزلت في يوم الأحد فاتخذه النصارى عيدًا.

وقال ابن عباس: معناه يأكل منها أول الناس كما يأكل ءاخرهم ﴿وَءَايَةٗ مِّنكَۖ﴾ أي وتكون المائدة دلالة على قدرتك ووحدانيتك وحجّة بصدق رسولك ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾ أي ارزقنا ذلك من عندك. وقيل: ارزقنا الشكر على هذه النعمة ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يعني وأنت خير من تفضّل ورزق.

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ عزّ وجلّ مجيبًا لعيسى ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا﴾ يعني المائدة ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني بعد نزول المائدة ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا﴾ يعني جنسًا من العذاب ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني من عالمي زمانهم، فمنهم من جحد وكفر بعد نزول المائدة فمسخوا خنازير.

قال الزجاج: ويجوز أن يكون هذا العذاب معجّلًا في الدنيا ويجوز أن يكون مؤخرًا إلى الآخرة. قال عبد الله بن عمر: «إن أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وءال فرعون» اهـ.

واختلف العلماء في نزول المائدة، فقال الحسن ومجاهد: لم تنزل المائدة لأن الله لما أوعدهم على الكفر بالعذاب بعد نزول المائدة خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا وقالوا: لا نريدها فلم تنزل عليهم، فعلى هذا القول يكون معنى قوله تعالى ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ إن سألتم نزولها، والصحيح الذي عليه جمهور العلماء والمفسرين أنها نزلت لأن الله تعالى قال ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ وهذا وعد من الله بإنزالها ولا خلف في خبره ووعده، ولما روي عن عمّار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ «أُنزلت المائدة من السماء خبزًا ولحمًا وأمروا أن لا يخونوا ولا يدّخروا لغد فخانوا

وادّخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير» أخرجه الترمذي وقال: قد روي عن عمّار من غير طريق موقوفًا وهو أصح اهـ.

وقال ابن عباس: «إن عيسى عليه السلام قال لهم: صوموا ثلاثين يومًا ثم اسألوا الله ما شئتم يعطيكموه، فصاموا فلما فرغوا قالوا: يا عيسى إنا لو عملنا عملًا لأحد فقضينا عمله لأطعمنا، وسألوا المائدة، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعوها بين أيديهم، فأكل منها ءاخر الناس كما أكل أولهم» اهـ.

وقال سلمان الفارسي: «لما سأل الحواريون المائدة لبس عيسى صوفًا وبكى وقال ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها وهي تهوي إليهم منقضّة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال: «اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة» اهـ. واليهود ينظرون إلى شىء لم ينظروا مثله ولم يجدوا ريحًا أطيب من ريحه، فقال عيسى عليه السلام: «ليقم أحسنكم عملًا فليكشف عنها ويسمِّ الله» اهـ. فقال شمعون الصفا رأس الحواريين: أنت أولى بذلك منا، فقام عيسى عليه السلام فتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى بكاءً كثيرًا ثم كشف المنديل عنها وقال: «بسم الله خير الرازقين» اهـ. فإذا هو بسمكة مشوية ليس فيها شوك ولا عليها فلوس تسيل من الدسم وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خل، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد.

فقال شمعون: يا روح الله، أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة؟ فقال عيسى: «ليس شىء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الجنة ولكنه شىء اخترعه الله بقدرته العالية، كلوا مما سألتم واشكروا يمددكم ويزِدكم من فضله» اهـ. فقالوا:

يا روح الله، كن أول من يأكل منها، فقال عيسى: «معاذ الله[1] أن ءاكل منها، يأكل منها من سألها «فخافوا أن يأكلوا منها فدعا لها أهل الفاقة والمرض والبرص والجذام والمقعدين. فقال: «كلوا من رزق الله لكم الشفاء ولغيركم البلاء» اهـ. فأكلوا منها وهم ألف وثلاثمائة رجل وامرأة من فقير ومريض وزمن ومبتلى وصدروا منها وهم شباع، وإذا السمكة بحالها، كحين أُنزلت، ثم طارت المائدة صعودًا وهم ينظرون إليها حتى توارت، ولم يأكل منها مريض أو زمن أو مبتلى إلا عوفي، ولا فقير إلا استغنى، وندم من لم يأكل منها.

وقيل: مكثت أربعين صباحًا تنزل ضحى، فإذا نزلت اجتمع إليها الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء يأكلون منها، ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى يفيء الفيء، فإذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون إليها، حتى تتوارى عنهم، وكانت تنزل غبًّا يومًا ويومًا لا تنزل، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى عيسى عليه السلام: «اجعل مائدتي ورزقي للفقراء دون الأغنياء» اهـ. فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكّوا وشكّكوا الناس فيها، وقالوا: ترون المائدة حقًّا تنزل من السماء؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إلى عيسى عليه السلام: «إني شرطتُ أنّ من كفر بعد نزولها عذّبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين» اهـ. فقال عيسى عليه السلام عند ذلك ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فمسخ الله منهم ثلاثمائة وثلاثين رجلًا باتوا ليلتهم مع نسائهم على فرشهم، ثم أصبحوا خنازير يسعون في الطرق يأكلون العذرة من الكناسات والحشوش. فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى عليه السلام وبكوا ولما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل عيسى عليه السلام يدعوهم بأسمائهم فيشيرون برؤوسهم ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا» اهـ.

وقال كعب: «أُنزلت المائدة منكوسة، تطير بها الملائكة بين السماء والأرض،

---

(١) لأنه أُمِر أن يُطعمهم هذا الطعام لا أن يأكله هو.

عليها كل شيء إلا اللحم» اهـ.

وقال ابن عباس: «أُنزل على المائدة كل شيء إلا الخبز واللحم» اهـ.

وقال الكلبي: «كان عليها خبز وبقل» اهـ.

وقال وهب بن منبه: «أنزل الله أقرصة من شعير وحيتانًا، فكان القوم يأكلون ويخرجون، ثم يجيء ءاخرون فيأكلون حتى أكلوا بأجمعهم، وفضل» اهـ.

وقال قتادة: «كانت تنزل عليهم بكرة وعشيًّا، حيث كانوا كالمنّ والسلوى لبني إسرائيل» اهـ.

وقال الكلبي ومقاتل: «أنزل الله سمكًا وخمسة أرغفة، فأكلوا منها ما شاء الله، والناس ألف ونيف، فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا الحديث ضحك من لم يشهد منهم، وقالوا: ويحكم إنما سحر أعينكم، فمن أراد الله به خيرًا ثبّته، ومن أراد فتنته رجع إلى كفره فمسخوا خنازير، وليس فيهم صبي ولا امرأة، فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا، ولم يأكلوا ولم يشربوا، وكذلك كل ممسوخ» اهـ.

قوله عزّ وجلّ ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ اختلف المفسرون في وقت هذا القول، فقال السدي: قال الله لعيسى هذا القول حين رفعه إلى السماء بدليل أن حرف (إذ) يكون للماضي.

وقال سائر المفسرين: إنما يقول الله له هذا القول يوم القيامة بدليل قوله ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ وذلك يوم القيامة، وبدليل قوله ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [سورة المائدة/ ١١٩] وذلك يوم القيامة. وأُجيب عن حرف (إذ) بأنها قد تجيء بمعنى (إذا) كقوله ولو ترى إذ فزعوا يعني إذا فزعوا، وقال الراجز:

ثم جزاك الله عني إذ جزى   جنات عدن في السموات العلى

ولفظ الآية في قوله ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ لفظ استفهام ومعناه الإنكار

والتوبيخ لمن ادّعى ذلك على عيسى عليه السلام من النصارى، لأن عيسى عليه السلام لم يقل هذه المقالة.

فإن قيل إذا كان عيسى عليه السلام لم يقلها فلِمَ وجه هذا السؤال له مع علم الله بأنه لم يقله؟

فالجواب: وجه هذا السؤال تثبيت الحجة على قومه، وإكذاب لهم في ادّعائهم ذلك عليه، وأنه أمرهم به، فهو كما يقول القائل لآخر: أفعلت كذا؟ وهو يعلم أنه لم يفعله، وإنما أراد تعظيم ذلك الفعل، فنفى عن نفسه هذه المقالة، وقال ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ فاعترف بالعبودية، وأنه ليس بإله كما زعمت وادَّعت فيه النصارى.

فإن قيل: إن النصارى لم يقولوا بإلهية مريم، فكيف قال ﴿ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فالجواب: إن النصارى لما ادّعت في عيسى أنه إلـٰه ورأوا أن مريم ولدته لزمهم بهذه المقالة ذلك على سبيل التبعية.

وقوله تعالى إخبارًا عن عيسى عليه السلام ﴿ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ يعني تنزيهًا لك عن النقائص، وبراءة لك من العيوب ﴿ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ أي كيف أقول بهذا الكلام ولست بأهل، ولست أستحق العبادة، حتى أدعو الناس إليها.

ولما بيّن أنه ليس له أن يقول هذه المقالة، وهذا المقام مقام التواضع والخشوع لعظمة الله تعالى شرع في بيان هل وقع ذلك منه أم لا؟ فقال ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ أسند العلم إلى الله تعالى، وهذا هو غاية الأدب، وإظهار المسكنة لعظمة الله تعالى وتفويض الأمر إلى علمه ثم قال ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ يعني تعلم ما أعلم، ولا أعلم ما تعلم. وقال ابن عباس: تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ يعني إنك تعلم ما كان وما سيكون، وهذا تأكيد لما تقدَّم من قوله تعالى ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾.

قوله تعالى إخبارًا عن عيسى ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ يعني ما قلت لهم إلا قولًا أمرتني به ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ يعني قلت لهم ذلك ﴿رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ ﴾ يعني وحّدُوه ولا تُشرِكوا به شيئًا ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ ﴾ يعني وكنتُ أشهد ما يفعلون، أحصره ما دمت مقيمًا فيهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى ﴾ يعني فلما رفعتني إلى السماء، فالمراد به رفعه إلى السماء والصحيح والمعتمد أن عيسى رُفع مستيقظًا ليس نائمًا، وحيًّا ليس ميتًا، ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ يعني الحفيظ عليهم، المراقب لأعمالهم وأحوالهم، والرقيب الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ يعني أنت شهدت مقالتي التي قلتها لهم، وأنت الشهيد عليهم بعدما رفعتني إليك، لا تخفى عليك خافية، فعلى هذا الشهيد هنا بمعنى الشاهد لما كان وما يكون، ويجوز أن يكون الشهيد هنا بمعنى العليم، يعني أنت العالِم بكل شيء فلا يعزب عن علمك شيء.

قوله عزّ وجلّ إخبارًا عن عيسى عليه السلام ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾ يعني إن تُعذّب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة بأن تُميتهم على كفرهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ ﴾ لا يقدرون على دفع ضر نزل بهم، ولا جلْبِ نفع لأنفسهم، وأنت العادل فيهم، لأنك أوضحت لهم طريق الحق فرجعوا عنه وكفروا ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يعني لمن تاب عن كفره منهم، بأن تهديه إلى الإيمان، فإن ذلك بفضلك ورحمتك ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ يعني في الانتقام ممّن تريد الانتقام منه، لا يمتنع عليك ما تريده ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أفعالك كلها، وهذا التفسير إنما يصح على قول السدي لأنه قال: كان سؤال الله عزّ وجلّ لعيسى عليه السلام حين رفعه إلى السماء قبل يوم القيامة.

أما على قول جمهور المفسرين: إن هذا السؤال إنما يقع يوم القيامة ففي قوله ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ إشكال وهو أنه لا يليق بعيسى عليه السلام طلب المغفرة لهم مع علمه بأن الله تعالى لا يغفر لمن يموت على الشرك، والجواب عن هذا الإشكال من وجهين أحدهما:

أنه ليس هذا على طريق طلب المغفرة ولو كان كذلك لقال: فإنك أنت الغفور الرحيم.

والوجه الثاني: قيل معناه ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾ يعني بإقامتهم على كفرهم إلى الموت ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يعني لمن ءامن منهم وتاب ورجع عن كفره.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ ﴾ الآية [سورة إبراهيم/ ٣٦]. وقول عيسى ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي، وبكى، فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد - وهو عالم - فاسأله ما يُبكيك، فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال - وهو أعلم - فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد، فقل له إنّا سنرضيك في أمتك ولا نسؤك» رواه مسلم.

عن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قام حتى أصبح بآية والآية: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أخرجه النسائي.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [سورة الأنعام].

قوله تعالى ﴿وَزَكَرِيَّا ﴾ هو ابن ءاذن بن بركيا ﴿وَيَحْيَىٰ ﴾ هو ابن زكريا ﴿وَعِيسَىٰ ﴾ هو ابن مريم بنت عمران ﴿وَإِلْيَاسَ ﴾ قال ابن مسعود هو إدريس، وله اسمان مثل يعقوب وإسرائيل.

وقال محمد بن إسحق: هو إلياس بن سنا بن فنحاص بن العيزار بن هارون ابن عمران، وهذا هو الصحيح، لأن أصحاب الأنساب يقولون إن إدريس جد نوح، لأن نوحًا ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس، ولأن الله تعالى نسب إلياس في هذه الآية إلى نوح وجعله من ذريته ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يعني أن كل من ذكرنا وسمينا.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ هو ابن إبراهيم، وإنما أُخّر ذكره إلى هنا لأنه ذكر إسحق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد، فلهذا السبب أُخّر ذكر إسماعيل إلى هنا، ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ هو ابن أخطوب بن العجوز﴿وَيُونُسَ﴾ هو ابن متّى ﴿وَلُوطًا﴾ هو ابن أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني على عالمي زمانهم. ويُستدل بهذه الآية على أنّ الأنبياء أفضل من الملائكة، لأن العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى، فيدخل فيه الـمَلَك فيقتضي أن الأنبياء أفضل من الملائكة.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة مريم].

قوله عزّ وجلّ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي في القرءان ﴿مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾

أي تَنَحَّت واعتزلت ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ أي من قومها ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أي مكانًا في الدار مما يلي المشرق، وكان ذلك اليوم شاتيًا شديد البرد، فجلست في مشرقه تفلّي رأسها.

وقيل: إن مريم كانت قد طهرت من الحيض فذهبت تغتسل.

قيل: ولهذا المعنى اتخذت النصارى المشرق قبلة ﴿فَٱتَّخَذَتۡ﴾ أي فضربت ﴿مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ قال ابن عباس: أي سترًا. وقيل: جلست وراء جدار ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ يعني جبريل ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ أي سوي الخلق، وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه.

فلما رأت مريم جبريل عليه السلام يقصد نحوها بادرته من بعيد ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ أي مؤمنًا مُطيعًا لله تعالى. فإن قيل: إنما يُستعاذ من الفاجر، فكيف قالت: إن كنت تقيًّا؟ قلت: هذا كقول القائل إن كنت مؤمنًا فلا تظلمني، أي ينبغي أن يكون إيمانك مانعًا لك من الظلم، كذلك ههنا، معناه ينبغي أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور ﴿قَالَ﴾ لها جبريل عليه السلام ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ﴾ أسند الفعل إليه وإن كانت الهبة من الله تعالى لأنه أرسل به، ﴿لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ قال ابن عباس: ولدًا صالحًا طاهرًا من الذنوب ﴿قَالَتۡ﴾ مريم ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي﴾ أي من أين يكون لي ﴿غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ أي ولم يقربني زوج ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ أي فاجرة، تريد أن الولد إنما يكون من نكاح أو سفاح، ولم يكن ههنا واحد منهما ﴿قَالَ﴾ جبريل ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي هكذا قال ربك ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ أي خلق ولدك بلا أب ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ أي علامة لهم ودلالة على قدرتنا ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ أي ونعمة لمن تبعه على دينه إلى بعثة محمد ﷺ ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ أي محكومًا مفروغًا منه، لا يُردّ ولا يُبدّل.

قوله عزّ وجلّ ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أي بعد أن نفخ جبريل في جيبها[1] ولبست الدرع حملت بعيسى في الحال ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ أي فلما حملته تنحت بالحمل وانفردت ﴿مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أي بعيدًا من أهلها، قال ابن عباس: أقصى الوادي وهو بيت لحم، فرارًا من أهلها وقومها، وأن يعيّروها بولادتها من غير زوج.

قال ابن عباس: كان الحمل والولادة في ساعة واحدة.

وقيل: حملته في ساعة، وصوّر في ساعة، ووضعته في ساعة وكان ذلك حين زالت الشمس من يومها.

وقيل: كانت مدته تسعة أشهر كحمل سائر الحوامل من النساء وهو الصحيح والأقوال الأخرى ليست ثابتة.

وقيل: كانت مدة حملها ثمانية أشهر، وذلك ءاية أخرى له لأنه لا يعيش من وُلِد لثمانية أشهر وهذا من حيث الغالب والمشهور بين الناس، ووُلِد عيسى لهذه المدة وعاش.

وقيل: وُلِد لستة أشهر وهي بنت عشر سنين. وقيل: ثلاث عشرة سنة.

وقيل: ست عشرة سنة.

وقال وهب: إن مريم لما حملت بعيسى كان معها ابن خال لها يقال له يوسف النجار، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي هو يمنة جبل صهيون وكانا يخدمان ذلك المسجد، ولم يعلم من أهل زمانهما أحد أشد عبادة واجتهادًا منهما، وأول من علم بحمل مريم يوسف، فبقي متحيّرًا في أمرها كلما أراد أن يتهمها ذكر عبادتها وصلاحها، وأنها لم تغِب عنه، وإذا أراد أن يبرئها رأى ما ظهر منها من الحمل، فأول ما تكلم به أن قال: إنه وقع في نفسي من أمرك شىء وقد حرصت على كتمانه، فغلبني ذلك، فرأيت أن أتكلم به، لعلي أشفي صدري. فقالت: قُلْ قولًا جميلًا، قال: أخبريني يا مريم، هل ينبت زرع بغير بذر؟ وهل ينبت شجر

(١) والجيب فتحة القميص التي من جهة العنق.

بغير غيث؟ وهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بَذْر، ألم تر أن الله أنبت الشجرة بالقدرة من غير غيث، أو تقول إن الله تعالى لم يقدر على أن يُنبِت الشجرة حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها؟

قال يوسف: لا أقول ولكني أقول إن الله تعالى يقدر على كل شيء، قالت له مريم: ألم تعلم أن الله خلق ءادم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى.

فعند ذلك زال ما عنده من الحيرة وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل فلما دَنَت ولادتها، أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك فذلك قوله تعالى ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾. قوله عزّ وجلّ ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ أي ألجأها وجاء بها، والمخاض وجع الولادة ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ وكانت نخلة يبست في الصحراء من شدة البرد، ولم يكن لها سعف.

وقيل: التجأت إليها تستند إليها، وتستمسك بها من شدة الطلق ووجع الولادة. ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ تمنت الموت استحياء من الناس، وخوفًا من قومها. ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ يعني شيئًا حقيرًا متروكًا لم يذكر ولم يعرف.

وقيل: معناه أنها تمنّت أنها لم تخلق ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ قيل: إنّ مريم كانت على أكَمَة وجبريل وراء الأكَمَة تحتها.

وقيل: ناداها من سفح الجبل. وقيل: هو عيسى، وذلك أنه لما خرج من بطن أمه ناداها ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ أي نهرًا، قال ابن عباس رضي الله عنه: ضرب جبريل عليه السلام برجله في الأرض، قيل فظهرت عين ماء عذبة، وجرت. وقيل: كان هناك نهر جّافٌّ فجرى فيه الماء بقدرة الله سبحانه وتعالى، والنخلة اليابسة أورقت وأثمرت وأرطبت.

وقيل: معنى ﴿تَحۡتَكِ﴾ أي تحت أمرك إن أمرته أن يجري جرى وإن أمرته بالإمساك أمسك ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾ أي حرّكي إليك ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ

﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ قيل: الجني الذي بلغ الغاية وجاء أوان اجتنائه. قال الربيع بن خيثم: «ما للنفساء عندي خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل» اهـ.

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾ أي يا مريم كلي من الرطب، واشربي من النهر وقرّي عينًا، أي طيبي نفسًا.

وقيل: قرّي عينك بولدك عيسى يقال: أقرّ الله عينك أي صادف فؤادك ما يرضيك فتقرّ عينك عن النظر إلى غيره ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ معناه يسألك عن ولدك ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي صمتًا.

قيل: كان في بني إسرائيل من أراد أن يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام، فلا يتكلم حتى يُمسي. وقيل: إن الله أمرها أن تقول هذا إشارة.

وقيل: أمرها أن تقول هذا القول نطقًا، ثم تُمسِك عن الكلام بعده، وإنما مُنعت من الكلام لأمرين.

أحدهما: أن يكون عيسى عليه السلام هو المتكلم عنها، ليكون أقوى لحجتها في إزالة التهمة عنها، وفيه دلالة على أن تفويض الكلام إلى الأفضل أولى.

والآخَرُ: كراهة مجادلة السفهاء وفيه أن السكوت عن السفيه مطلوبٌ ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ يقال إنها كانت تكلّم الملائكة ولا تكلم الإنس.

قوله تعالى ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ قيل: إنها لما وَلَدَت عيسى عليه السلام حملته في الحال إلى قومها. وقيل: إن يوسف النجار احتمل مريم وابنها عيسى إلى غار فمكثت فيه أربعين يومًا حتى طهرت من نفَاسها، ثم حملته إلى قومها، فكلمها عيسى في الطريق فقال: «يا أُماه أبشري، فإني عبد الله ومسيحه» فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي، بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي عظيمًا منكرًا ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ أي يا شبيهة هارون، قيل كان رجلًا صالحًا في بني إسرائيل شُبّهت به في عفتها وصلاحها وليس المراد الأخوَّة في النسب.

قيل إنه تبع جنازته يوم مات أربعون ألفًا من بني إسرائيل، كلهم يسمى هارون سوى سائر الناس.

عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت خراسان سألوني، فقالوا لي: إنكم تقرؤون ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم» اهـ. رواه مسلم. وقيل: كان هارون أخا مريم لأبيها. وقيل: كان من أمثل رجل من بني إسرائيل.

وقيل: إنما عنوا هارون أخا موسى لأنها كانت من نسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ يعني عمران ﴿ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾ قال ابن عباس: زانيًا ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ﴾ يعني حنّة ﴿بَغِيّٗا﴾ أي زانية فمن أين لك هذا الولد ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾ أي أشارت مريم إلى عيسى أن كلمهم. قال ابن مسعود: لما لم يكن لها حجّة أشارت إليه ليكون كلامه حُجّة لها. وقيل لما أشارت إليه غضب القوم وقالوا: مع ما فعلت تسخرين بنا ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ قيل: أراد بالمهد الحجر، وهو حُجرها. وقيل: هو المهد بعينه. قيل لما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم. وقيل: لمَّا أشارت إليه ترك الرضاع واتكأ على يساره وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ قال وهب: أتاها زكريا عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى: «انطق بحجّتك إن كنتَ أُمِرتَ بها» فقال عند ذلك عيسى وهو ابن أربعين يومًا، وقيل بل يوم وُلد ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ أقرّ على نفسه بالعبودية لله تعالى أوّل ما تكلم، قيل لئلا يُتخذ إلـٰـهًا.

فإن قيل: إن الذي اشتدت إليه الحاجة في ذلك الوقت نفي التهمة عن أمه، وإن عيسى لم ينصّ على ذلك، وإنما نصّ على إثبات عبوديته لله تعالى.

فالجواب: كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن أمه، فلهذا أوّل ما تكلم إنما تكلّم باعترافه على نفسه بالعبودية لتحصل إزالة التهمة عن

الأم، لأن الله تعالى لم يختصّ بهذه المرتبة العظيمة من وُلد من زنًا، والتكلّم بإزالة التهمة عن أمه، لا يفيد إزالة التهمة عن الله سبحانه وتعالى، فكان الاشتغال بذلك أولى. ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ قيل: معناه سيجعلني نبيًّا، ويؤتيني الكتاب وهو الإنجيل، وهذا إخبار عمّا كُتب له في اللوح المحفوظ، كما قيل للنبي ﷺ: متى كنت نبيًّا، قال: «**كنت نبيًّا وءادم بين الروح والجسد**» اهـ. أخرجه الطبراني وأحمد والحاكم.

وقال الأكثرون: إنه أُوتي الإنجيل وهو صغير، وكان يعقل عقل الرجال الكُمّل، وعن الحسن: أنه أُلهم التوراة وهو في بطن أمه ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ ومعناه إني نفّاعٌ أينما توجهت. وقيل: مُعلمًا للخير أدعو إلى الله، وإلى توحيده، وعبادته. وقيل: مباركًا على من يتبعني ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي أمرني بهما وكلفني فِعلهما، فإن قيل: كيف يؤمر بالصلاة والزكاة في حال طفوليته وقد قال ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاث: الصبي حتى يبلغ**» الحديثَ رواه الإمام أحمد في مسنده.

فالجواب: إن قوله ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال، بل المراد أوصاه بأدائهما في الوقت المعيّن لهما وهو البلوغ.

وقيل: إن الله تعالى صيّره حين انفصل عن أمه بالغًا عاقلًا، وهذا القول أظهر في سياق قوله ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ فإنه يفيد أن هذا التكليف متوجه إليه في جميع زمان حياته حين كان في الأرض، وحين رُفع إلى السماء، وحين ينزل إلى الأرض بعد رفعه، ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ أي وجعلني برًّا بوالدتي ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي عاصيًا لربي، متكبرًا على الخلق، بل أنا خاضع متواضع. وروي أنه قال: «قلبي ليّن وأنا منكسر في نفسي» اهـ.

قال بعض العلماء: لا تجد العاقّ إلا جبارًا شقيًّا اهـ. وتلا هذه الآية.

وقيل: الشقي الذي يذنب ولا يتوب﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ ﴾ أي السلامة

عند الولادة من طعن الشيطان ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ أي عند الموت من الشرك ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي من أهوال يوم القيامة.

فلما كلّمهم عيسى بذلك علموا براءة مريم، ثم سكت عيسى بعد فلم يتكلم حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الأطفال ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي ذلك الذي قال ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ هو عيسى ابن مريم ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ أي هذا الكلام هو القول الحق أضاف القول إلى الحق. وقيل: هو نعت لعيسى يعني بذلك عيسى ابن مريم كلمة الله الحق، والحق هو الله ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكون ويختلفون، فقائل يقول: هو ابن الله، وقائل يقول: ثالث ثلاثة، تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

ثم نزّه نفسه عن اتخاذ الولد ونفاه عنه فقال تعالى ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ أي ما كان من صفاته اتخاذ الولد، ولا ينبغي له ذلك ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي إذا أراد أن يُحدِث أمرًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لأنه كذلك يبتدع الأشياء ويخترعها، إنما ﴿يَقُولُ لَهُۥ﴾ إذا قضى خلق شيء أو إنشاءه ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ موجودًا حادثًا، لا يعظم عليه خلقه، لأنه لا يخلقه بمعاناة وكلفة، ولا ينشئه بمعالجة وشدّة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ هذا إخبار عن عيسى أنه قال ذلك، يعني ولأن الله ربي وربكم لا رب للمخلوقات سواه ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي أخبرتكم به أنّ الله أمرني به هو الصراط المستقيم الذي يؤدي إلى الجنة ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ يعني النصارى، سُمّوا أحزابًا لأنهم تحزبوا ثلاث فرق في أمر عيسى: النسطورية والملكانية واليعقوبية ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني يوم القيامة ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة، حين لا ينفعهم السمع والبصر. أخبرنا أنهم يسمعون ويُبصرون في الآخرة ما لم يسمعوا ويُبصروا في الدنيا. وقيل: معناه التهديد بما يسمعون ويبصرون مما يسوؤهم ويصدّع قلوبهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي يوم القيامة ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قيل: أراد باليوم الدنيا، يعني أنهم في الدنيا في خطأ بيّن وفي الآخرة يعرفون الحق. وقيل: معناه ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في الآخرة في ضلال عن طريق الجنة، بخلاف المؤمنين.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء/ ٩١].

قوله تعالى ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي إحصانًا كليًّا من الحلال والحرام جميعًا.

كما قالت ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ وهي مريم بنت عمران ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أمرنا جبريل حتى نفخ في جيب درعها، فخلقنا بذلك النفخ المسيح في بطنها، وأضاف الروح إليه تشريفًا لعيسى كبيت الله وناقة الله﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً﴾ أي دلالة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ على كمال قدرتنا، على خلق ولد من غير أب.

فإن قيل: هما ءايتان فكيف قال ﴿ءَايَةً﴾؟

فالجواب: معنى الكلام وجعلنا شأنهما وأمرهما ءاية واحدة، أي ولادتها إياه من غير أب ءاية.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [سورة المؤمنون/ ٥٠].

قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً﴾ أي دلالة على قدرتنا، لأنه خلقه من غير ذكر، وأنطقه في المهد.

فإن قيل: لم قال ﴿ءَايَةً﴾ ولم يقل ءايتين؟

فالجواب: معناه جعلنا شأنهما ءاية، لأن عيسى ولد من غير ذكر، وكذلك مريم ولدته من غير ذكر، فاشتركا في هذه الآية، فكانت ءاية واحدة ﴿وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي مكان مرتفع، قيل: هي دمشق، وقيل: هي الرملة، وقيل: أرض فلسطين، وقال ابن عباس: هي بيت المقدس، وقيل: هي مصر، وسبب الإيواء أنها فرّت بابنها إليها.

وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ أي منبسطة واسعة يستقر عليها ساكنوها

﴿وَمَعِينٍ﴾ هو الماء الجاري الذي تراه العيون.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [سورة الأحزاب].

قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي على الوفاء بما حملوا، وأن يصدّق بعضهم بعضًا، ويبشّر بعضهم ببعض، وقيل: على أن يعبدوا الله ويدعوا الناس إلى عبادته وينصحوا قومهم ﴿وَمِنكَ﴾ يعني يا محمد ﷺ ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ خصّ هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيين لأنهم أصحاب الكتب والشرائع، وأولو العزم من الرسل، وقدم النبي في الذكر تشريفًا له وتفضيلًا. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي عهدًا شديدًا على الوفاء، بما حملوا من تبليغ الرسالة ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ يعني أخذ ميثاقهم لكي يسأل الصادقين يعني النبيين عن تبليغهم الرسالة، والحكمة في سؤالهم مع علمه سبحانه وتعالى أنهم صادقون تبكيت من أرسلوا إليهم، وقيل ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ عن عملهم لله عزّ وجلّ، وقيل ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ بأفواههم وقيل ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ في قلوبهم ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

تفسير قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا

وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى/ ١٥].

قوله عزّ وجلّ ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾ أي بيّن وسَنَّ لكم طريقًا واضحًا من الدين، أي دينًا تطابقت على صحته الأنبياء وهو قوله تعالى ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ يعني أنه أول الأنبياء أصحاب الشرائع بعد الطوفان، والمعنى قد وصّيناه وإيَّاك يا محمد دينًا واحدًا[1] ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي من القرءان وشرائع الإسلام ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ ﴾ إنما خصّ هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع المعظمة، والأتباع الكثيرة، وأُولو العزم.

ثم فسر المشروع الذي اشترك فيه هؤلاء الأعلام من رسله بقوله تعالى ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ والمراد بإقامة الدين توحيد الله تعالى والإيمان به وبكتبه ورسله واليوم الآخر، وطاعة الله في أوامره ونواهيه وسائر ما يكون الرجل به مسلمًا، ولم يُرِدِ الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها فإنها مختلفة متفاوتة، قال الله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ ﴿٤٨﴾﴾ وقيل: أراد تحليل الحلال وتحريم الحرام، وقيل: تحريم الأمهات والبنات والأخوات فإنه مُجمع على تحريمهنّ، وقيل: لم يبعث الله نبيًّا إلا وصّاه بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإقرار لله تعالى بالوحدانية والطاعة. وقيل: بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين والإلفة والجماعة وترك الفُرقة ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ﴾ أي من التوحيد ورفض الأوثان ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ﴾ أي يصطفي لدينه من يشاء من عباده ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ أي يقبل على طاعته ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ ﴾ يعني أهل الأديان المختلفة، وقال ابن عباس: يعني أهل الكتاب ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ

---

(١) يجب الاعتقاد بأن أول الأنبياء والمرسلين هو ءادم عليه الصلاة والسلام بنص القرءان والحديث والإجماع.

﴿مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي بأن الفرقة ضلالة ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي ولكنهم فعلوا ذلك للبغي، وقيل: بغيًا منهم على محمد ﷺ ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ أي في تأخير العذاب عنهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ يعني إلى يوم القيامة ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي بين من ءامن وكفر، يعني لأنزل العذاب بالمكذبين في الدنيا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي من بعد أنبيائهم، وقيل: من الأمم الخالية ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ أي من أمر محمد ﷺ فلا يؤمنون به ﴿مُرِيبٖ﴾ يعني مرتابين شاكين فيه ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي إلى ذلك ﴿فَٱدۡعُۖ﴾ أي إلى ما وصّى الله تعالى به الأنبياء من التوحيد، وقيل: لأجل ما حدث به من الاختلاف في الدين الكثير فادعُ أنت إلى الاتفاق على الملّة الحنيفية ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ أي اثبت على الدين الذي أمرت به ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ أي المختلفة الباطلة ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ أي ءامنتُ بكتب الله المنزّلة كلها، وذلك لأن المتفرقين ءامنوا ببعض الكتب وكفروا ببعض ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ قال ابن عباس: أُمرت أن لا أحيف عليكم بأكثر مما افترض الله عليكم من الأحكام، وقيل: لأعدل بينكم في جميع الأحوال والأشياء، وقيل: لأعدل بينكم في الحكم إذا تخاصمتم وتحاكمتم إليّ ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾ يعني أن إلـٰه الكل واحد، وكل أحد مخصوص بعمل نفسه، وإن اختلفت أعمالنا فكلٌّ يُجازَى بعمله ﴿لَا حُجَّةَ﴾ أي لا خصومة ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ وهذه الآية منسوخة بآية القتال، إذ لم يُؤمر في ذلك الوقت بالقتال وأُمر بالدعوة ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ أي في المعاد لفصل القضاء ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ [سورة الزخرف/ ٥٧].

قوله تعالى ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في مجادلة عبد الله بن الـزِّبَعْرَى مع النبي ﷺ في شأن عيسى ابن مريم عليه

الصلاة والسلام وذلك لما نزل قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ يعني قريشًا ﴿مِنْهُ﴾ أي من المَثَل ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي يرتفع لهم ضجيج وصياح وفرح، وقيل: يقولون إن محمدًا ما يريد منا إلا أن نعبده ونتخذه إلـٰهًا كما عبدت النصارى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الزخرف].

قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني عيسى ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ يعني نزوله من أشراط الساعة، يُعلَم به قربها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَمًا عادلًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»** اهـ. رواه الحاكم في المستدرك وفي رواية أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: **«ليس بيني وبين عيسى نبي وإنه نازل فيكم فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يُصِبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله تعالى في زمانه المِلَلَ كلَّها إلا الإسلام ويهلك الدجّال، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ثم يُتوفَّى ويصلّي عليه المسلمون»** اهـ.

وقال رسول الله ﷺ: **«كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم»** اهـ. رواه البخاري. وفي رواية: **«فأمّكم منكم»** اهـ. رواه البخاري قال ابن أبي ذؤيب:

فأمّكم بكتاب ربكم عزّ وجلّ، وسُنّة نبيّكم اهـ.

ويروى أنه ينزل عيسى وبيده حربة، وهي التي يقتل بها الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر، فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلّي خلفه على شريعة محمد ﷺ ثم يقتل الخنازير، ويكسر الصليب، ويخرّب البِيَع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من ءامن.

وقيل في معنى الآية ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي وإن القرءان ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي نزوله من السماء من العلامات الكبرى ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي لا تَشُكُنَّ فيها.

وقال ابن عباس: لا تكذبوا بها ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ أي على التوحيد ﴿هَٰذَا﴾ أي الذي أنا عليه ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ أي لا يصرفكم ﴿ٱلشَّيْطَٰنُۖ﴾ عن دين الله الذي أمر به ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي بالنبوة ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾ أي من أحكام التوراة، وقيل: من اختلاف الفرق الذين تحزبوا في أمر عيسى، وقيل: الذي جاء به عيسى الإنجيل، وهو بعض الذي اختلفوا فيه، فبيّن لهم عيسى في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي في ما ءامركم به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ﴾ أي اختلفت الفرق المتحزبة بعد عيسى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ينتظرون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأة، والمعنى أنها تأتيهم لا محالة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحديد].

قوله عزّ وجلّ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالدلالات والآيات والحجج.

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي المتضمّن للأحكام وشرائع الدين ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ يعني العدل، أي وأمرنا بالعدل، وقيل: المراد بالميزان هو الآلة التي يوزن بها، وهو يرجع إلى العدل أيضًا وهو قوله ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي ليتعاملوا بينهم بالعدل.

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ بمعنى أنشأنا وأحدثنا الحديد، وذلك أن الله أخرج لهم الحديد من المعادن، وعلّمهم صنعته بوحيه وإلهامه ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي قوة شديدة، فمنه جنة وهي ءالة الدفع، ومنه سلاح وهي ءالة الضرب ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي ومنه ما ينتفعون به في مصالحهم كالسكين والفأس والإبرة ونحو ذلك إذ الحديد ءالة لكل صنعة، فلا غنى لأحد عنه ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ أي وأرسلنا رُسلنا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليتعامل الناس بالحق والعدل وليرى الله[1] ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي من ينصر دينه ﴿وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي الذين لم يروا الله ولا الآخرة، وإنما يُحمَد ويُثاب من أطاع بالغيب، وقال ابن عباس: ينصرونه ولا يبصرونه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ في أمره ﴿عَزِيزٌ﴾ في مُلكه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ معناه أنه تعالى شرّف نوحًا وإبراهيم بالرسالة، وجعل في ذريتهما النبوة والكتاب، فلا يوجد نبي إلا من نسلهما ﴿فَمِنْهُم﴾ أي من الذرية ﴿مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ والمعنى بعثنا رسولًا بعد رسول إلى أن انتهت الرسالة إلى عيسى ابن مريم وهو قوله تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أي على دينه ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ يعني أنهم كانوا متوادّين

(١) علم الله أزلي أبدي لا يتغير ولا يتجدد ولا يظهر له شيء كان خافيًا عنه، فعلمه سبحانه علمٌ واحدٌ يعلم به كل شيءٍ من غير أن يتغير علمه لأن المتغير حادث أي مخلوق وتنزه الله عن ذلك.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ ليس هذا عطفًا على ما قبله، والمعنى أنهم جاؤوا بها من قِـبَل أنفسهم، وهي ترهّبهم في الجبال والكهوف والغيران والديرة، فروا من الفتنة، وحمّلوا أنفسهم المشاق في العبادة الزائدة، وترك النكاح، واستعمال الخشن في المطعم والمشرب والمجلس مع التقلّل من ذلك ﴿مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ما فرضناها نحن عليهم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي الذين حرفوا وبدلوا يعني أنهم لم يرعوا تلك الرهبانية حقّ رعايتها، بل ضيعوها، وضمّوا إليها التثليث والاتحاد، وكفروا بدين عيسى، ودخلوا في دين ملوكهم.

وأقام أُناس منهم على دين عيسى حتى أدركوا محمدًا فآمنوا به، فذلك قوله تعالى ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ وهم الذين ثبتوا على الدين الصحيح ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ وهم الذين تركوا الرهبانية، وكفروا بدين عيسى عليه السلام.

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن مسعود قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ فقال: «يا ابن مسعود اختلف من كان قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث، وهلك سائرهن، فرقة وازت الملوك وقاتلوهم على دين عيسى فأخذوهم وقتلوهم، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا أن يقيموا بين ظهرانيهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى فساحوا في البلاد وترهبوا وهم الذين قال الله عز وجل فيهم ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ قال ﷺ: **«مَن ءامن بي وصدّقني واتّبعني فقد رعاها حقّ رعايتها، ومَن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون»** اهـ.

وعنه رضي الله عنه قال: كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار فقال لي: «يا ابن أم عبد هل تدري من أين أخذت بنو إسرائيل الرهبانية؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بالمعاصي، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا قليل، فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء فتنونا ولم يبق أحد يدعو إليه تعالى، فتعالوا نتفرق في الأرض إلى

أن يبعث الله النبي الذي وعدنا عيسى به - يعنون محمدًا ﷺ - فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر. ثم تلا هذه الآية ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي من الذين ثبتوا عليها ثم قال النبي ﷺ: يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: الهجرة والصلاة والجهاد والصوم والحج والعمرة والتكبير على التلاع» اهـ.

وروي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله**» اهـ.

روى النسائي عن ابن عباس قال: «كانت ملوك بعد عيسى عليه الصلاة والسلام بدّلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم جماعة مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ويدعونهم إلى دين الله، فقيل لملوكهم: لو جمعتم هؤلاء الذين شقوا عليكم فقتلتموهم، أو دخلوا في ما نحن فيه، فجمعهم ملكهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدّلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟ دعونا نحن نكفيكم أنفسنا.

فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا اسطوانًا ثم ارفعونا فيه، ثم أعطونا شيئًا نرفع به طعامنا وشرابنا، فلا نَرِد عليكم.

وطائفة قالت: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا.

وقالت طائفة منهم: ابنوا لنا دورًا في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول ولا نَرِدُ عليكم ولا نمرّ عليكم.

وليس أحد من القبائل إلا وله حميم فيهم، قال: ففعلوا ذلك، فمضى أولئك على منهاج عيسى وخُلّف قوم من بعدهم ممّن غيروا الكتاب، فجعل الرجل يقول: نكون في مكان فلان نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دورًا كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم، فذلك

قول الله عزّ وجلّ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ يعني ابتدعها الصالحون ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أجرَيْن بإيمانهم بعيسى وبالتوراة والإنجيل وبإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم له، وقال ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ القرءان واتباعهم النبي، وقال ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الآية» اهـ. أخرجه النسائي موقوفًا على ابن عباس.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الصف].

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ أي إني رسول أرسلت إليكم بالوصف الذي وُصفت به في التوراة ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي إني مقرٌّ معترف بأحكام التوراة وكتب الله وأنبيائه جميعًا ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى﴾ أي يصدّق بالتوراة على مثل تصديقي فكأنه قيل: ما اسمه؟ فقال ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.

عن أبي موسى قال: «أمر رسول الله أصحابه أن يأتوا النجاشي، وذكر الحديث. وفيه قال: سمعت النجاشي يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، وأنه

الذي بشّر به عيسى، ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملت من أمر الناس لأتيته حتى أحمل نعليه» اهـ. أخرجه أبو داود.

وعن عبد الله بن سلام قال: «مكتوب في التوراة صفة محمد، وعيسى ابن مريم يدفن معه، فقال أبو داود المدني: قد بقي في البيت موضع قبر» اهـ. أخرجه الترمذي.

وعن كعب الأحبار: «أن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام: يا روح الله هل بعدنا من أمة قال: نعم، يأتي بعدكم أمة حكماء علماء أبرار أتقياء، كأنهم في الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل» اهـ.

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي يوم القيامة وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي»** اهـ. رواه البخاري.

وقد سمّاه الله تعالى رؤوفًا رحيمًا.

وأحمد يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه مبالغة من الفاعل، ومعناه أن الأنبياء كلهم حمّادون لله عزّ وجلّ، وهو أكثر حمدًا لله من غيره.

والثاني: أنه مبالغة من المفعول، ومعناه أن الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة، وهو أكثر مبالغة، وأجمع للفضائل والمحاسن والأخلاق التي يحمد بها من غيره.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ قيل هو عيسى عليه الصلاة والسلام، وقيل هو محمد ﷺ ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ نَعۡلَمُونَ﴾ أي ظاهر ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ أي ومن أقبح ظلمًا ممن بلغ افتراؤه أن يكذب على الله، وذلك أنهم علموا أن ما نالوه من نعمة هو من الله، ثم كفروا به ﴿وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾ معنى الآية أيّ الناس

أشد ظلمًا ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على الله. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفقهم للهداية لـمَا عَلِم من حالهم عقوبة لهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ يعني إرادتهم إبطالَ الإسلام بقولهم في القرءان ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ﴾.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ يعني متمٌّ للحق ومُظهرُه ومُبلغه غايته، وقال ابن عباس: مُظهر دينه. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي ليعليه على الأديان المخالفة له، ولقد فعل ذلك فلم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب ومقهور بدين الإسلام ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

قوله عزّ وجلّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ نزلت هذه الآية حين قالوا: لو نعلم أيّ الأعمال أحب إلى الله عزّ وجلّ لعملناه، وإنما سمّاه تجارة لأنهم يربحون فيه رضا الله عزّ وجلّ ونيل جنته والنجاة من النار.

ثم بيّن تلك التّجارة فقال تعالى ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي الذي أمركم به من الإيمان والجهاد في سبيله ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ هذا جواب قوله ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ﴾ لأن معناه ءامنوا بالله وجاهدوا في سبيل الله، أي إذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم. ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِى جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

يعني هذا الجزاء الذي ذكر هو الفوز العظيم ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي ولكم تجارة أخرى، وقيل: لكم خصلة أخرى تحبونها في العاجل مع ثواب الآخرة وتلك الخصلة ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ قيل: هو النصر على قريش وفتح مكة، وقيل: فتح مدائن فارس والروم ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي يا محمد بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة، ثم حضّهم على نصر الدين وجهاد المخالفين فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي مع الله، والمعنى انصروا دين الله كما نصر الحواريون دين الله، لما قال لهم عيسى «من

أنصاري إلى الله» ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ وكانوا اثني عشر رجلًا، وهم أول من ءامن بعيسى عليه الصلاة والسلام، وحواري الرجل صفيه وخلاصته، ومنه قوله: «وحواريَّ الزبير»[1].

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ قال ابن عباس: في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام، وذلك أنه لما رُفع تفرق قومه ثلاث فرق، فرقة قالوا: كان الله فارتفع، وفرقة قالوا: كان ابن الله فرفعه، وفرقة قالوا: كان عبد الله ورسوله فرفعه، وهم المؤمنون، واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس، فاقتتلوا فظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين، حتى بعث الله محمدًا فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة، فذلك قوله تعالى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ أي غالبين، وقيل: معناه فأصبحت حجة من ءامن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ أن عيسى روح الله، وكلمته، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

---

(١) عن جابر رضي الله عنه قال «قال النبي ﷺ من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب قال الزبير أنا ثم قال من يأتيني بخبر القوم قال الزبير أنا فقال النبي ﷺ إنّ لكل نبي حواريًّا وحواريَّ الزبير اهـ. رواه البخاري. وعن أبي صخر أن سعيدًا المقبري أخبره أنه قال سمعت أبا هريرة يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفس أبي القاسم بيده لينزلن عيسى ابن مريم إمامًا مقسطًا وحكمًا عدلًا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليصلحن ذات البين وليذهبن الشحناء وليعرضن عليه المال فلا يقبله ثم لئن قام على قبري فقال يا محمد لأجبته» اهـ.رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده (٦/ ١٠٠).

قصة عيسى ابن مريم
(عليه السلام)

عندما قَدِم وفد نجران إلى رسول الله ﷺ، جعلوا يذكرون عقيدة التثليث الباطلة، ويدعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة الذات المقدس وعيسى ومريم. فأنزل الله عز وجل صدر سورة ءال عمران وبيّن فيها أن عيسى عبد من عباد الله خلقه وصوّره في الرحم، كما صور غيره من المخلوقات، وأنه خلقه من غير أب كما خلق ءادم من غير أب ولا أم. وبيّن أصل ميلاد أمه مريم وما كان من أمرها، وكيف حملت بولدها عيسى، وكذلك بسط ذلك في سورة مريم، كما سنتكلم عن ذلك كلّه بعون الله وحُسن توفيقه وهدايته. فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة ءال عمران].

بيّن الله تعالى أمر المسيح لرسوله فقال: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة مريم]، يعني: من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله، ولهذا قال: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي: لا يُعجزه شيء ولا يؤوده أي لا يتعبه، بل هو القدير على ما يشاء الفعّال لما يريد سبحانه. وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة ءال عمران]. هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد، أخبرهم:

أن الله ربه وربهم، وأن هذا هو الصراط المستقيم. قال الله تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة مريم]، أي فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه، فمن قائل من اليهود إنه ولد زانية، واستمروا على كفرهم وعنادهم، وقابلهم ءاخرون في الكفر، فقالوا: هو الله، وقال ءاخرون: هو ابن الله، وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. وهؤلاء هم الناجون المثابون المؤيدون المنصورون، ومن خالفهم في شىء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون. وقد توعدهم الله العلي العظيم بقوله: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة مريم].

نشأة مريم عليها السلام وتبشير الملائكة لها

نشأت الصدّيقة الوليّة مريم عليها السلام نشأة طُهر وعفاف وتربت على التقوى تؤدي الواجبات وتكثر من نوافل الطاعات، وعاشت في جوار بيت المقدس، وقد وصفها الله تعالى في القرءان الكريم بالصدّيقة، وكانت الملائكة تأتي إلى مريم عليها السلام وتزورها، إلى أن جاءت إليها في وقت وبشرتها باصطفاء الله تعالى لها من بين سائر النساء وبتطهيرها من الأدناس والرذائل، وبشرتها كذلك بمولود كريم يكون له شأن عظيم في الدنيا والآخرة ويكلم الناس صغيرًا في المهد ويكون كهلًا ومن الصالحين، يقول الله تعالى في القرءان الكريم: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة ءال عمران].

ويقول الله تعالى إخبارًا عن تبشير الملائكة لمريم عليها السلام بعيسى ﷺ: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة ءال عمران].

فائدة: روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد بالإسناد عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير نسائها**[1] **مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد**» وروى أحمد وغيره عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وءاسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد**» وهن على هذا الترتيب مريم فاطمة خديجة وآسيا.

ذكر ولادة نبي الله عيسى ابن مريم
عبد الله ورسوله
وبيان حال أمه مريم العذراء البتول حين ولادته

يقول الله تعالى في القرءان الكريم ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة التحريم]. لقد جاء في قصة حَمْلِها ووَضْعِهَا أنَّها ذهبت ذاتَ يوم إلى مكان لتقضي أمرًا فأرسل الله إليها جبريل عليه السلام متشكلًا بشكل شاب أبيض الوجه ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [سورة مريم]، أي قال لها إنّ الله أرسله إليها ليهبها ولدًا صالحًا طاهرًا من الذنوب. ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ [سورة مريم]. أي قالت مريم: أنى يكون لي غلام ولم يقربني زوج ولم أكن فاجرة زانية. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [سورة مريم] أي فأجابها جبريل عن تعجُّبها بأنَّ خلْقَ ولدٍ من غير أب سَهْلٌ هيّنٌ على الله تعالى، وليجعله علامةً للناس ودليلًا على كمال قدرته سبحانه وتعالى وليجعله رحمة ونعمة لمن اتَّبعه وصدَّقه وءامنَ به. يقول الله تعالى في القرءان الكريم ﴿فَحَمَلَتْهُ

(١) أي نساء الجنة.

﴿فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝٢٦﴾ [سورة مريم].

لقد نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها فحملت بعيسى عليه السلام ثم تنحت بحملها بعيدًا خوف أن يعيرها الناس بولادتها من غير زوج ثم ألجأها وجع الولادة إلى ساق نخلة يابسة وتمنت الموت خوفًا من أذى الناس، فناداها جبريل يطمئنها ويخبرها أن الله جعل تحتها نهرًا صغيرًا ويطلب منها أن تهز جذع النخلة ليتساقط عليها الرطب الجني وأن تأكل وتشرب مما رزقها الله وأن تقر عينها وأن تقول لمن رءاها وسألها عن ولدها إني نذرت للرحمـٰن أن لا أكلم أحدًا.

ثم إن مريم عليها السلام أتت قومها تحمل مولودها عيسى عليه السلام على يدها في بيت لحم فقالوا لها: لقد فعلت فعلة منكرة عظيمة، فإن أباك لم يكن رجل سوء ولم تكن أمك زانية وظنوا بها السوء وصاروا يوبّخونها ويؤنبونها وهي ساكتة لا تجيب لأنها أخبرتهم أنها نذرت للرحمـٰن صومًا ولما ضاق بها الحال أشارت إلى عيسى عليه السلام، عندها قالوا لها ما أخبر الله به بقوله ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩﴾ [سورة مريم]، عند ذلك أنطق الله تبارك وتعالى بقدرته سيدنا عيسى عليه السلام وكان رضيعًا ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ [سورة مريم] هذا اعتراف بالعبودية لله عز وجل وهذا أولُ ما نطقَ به عليه السلامُ وهو في المهد وقوله ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا ۝٣١﴾ [سورة مريم] أي جعلني نفَّاعًا معلّمًا للخير حيث ما توجَّهتُ وقال عطاء أدعو إلى الله وإلى توحيده وعبادته.

اتهام مريم بالزنا وولادتها السيد المسيح عليه الصلاة والسلام

لما حملت السيدة مريم عليها السلام بعيسى وظهرت عليها ءاثار الحمل كان أول من فطن لذلك زكريا عليه السلام وقيل ابن خالها يوسف بن يعقوب النجار وكان من عباد الله الصالحين فجعل يتعجب من ذلك لما يعلم من تدينها ونزاهتها فقال لها مرة يعرض لها في حملها: يا مريم هل يكون زرعٌ من غير بذر؟ فقالت له: نَعم فمن خلق الزرع الأول؟ ثم قال لها: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم إن الله خلق ءادم من غير ذكر وأنثى، عندئذ قال لها: فأخبريني خبرك، فأخبرته حقيقة أمرها وقالت له: إن الله تعالى بشرني بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلًا ومن الصالحين.

شاع الخبر في بني إسرائيل أن مريم حامل فأساء بها الظن كثير منهم واتهمها البعض بيوسف النجار الذي كان يتعبدُ معها في المسجد، واتهمها ءاخرون بنبي الله زكريا عليه السلام، فحزنت عليها السلام حزنًا شديدًا واعتراها كرب عظيم وتوارت عن أعينهم واعتزلتهم وانتبذت بحملها مكانًا بعيدًا فرارًا من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها إذا أتتهم بمولودها الصغير مع أنها كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد في عبادة الله سبحانه.

ولما أتمت مريم عليها السلام أيام حملها وهي في بيت لحم اشتد بها المخاض ثم ألجأها وجع الولادة إلى جذع نخلة يابسة وقيل كانت نخلة مثمرة، فاحتضنت ذلك الجذع وولدت مولودها عيسى عليه السلام، وناداها جبريل عليه السلام من مكان من تحتها من أسفل الجبل يطمئنها ويخبرها أن الله تبارك وتعالى جعل

تحتها نهرًا صغيرًا ويطلب منها أن تهزّ جذع النخلة ليتساقط عليها الرطب الجني الطري وأن تأكل وتشرب مما رزقها الله تعالى وأن تقر عينها بذلك وأن لا تكلم إنسًا فإن رأت أحدًا من الناس تقول له بالإشارة أنها نذرت للرحمـٰن صومًا أي صمتًا، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام، فهزت مريم عليها السلام جذع النخلة فتساقط عليها الرطب الجني الناضج فأكلت عليها السلام منه وشربت من ذلك النهر الذي أجراه الله تبارك وتعالى بقدرته لها في مكان كان فيه نهر جاف، وكل ذلك إكرامًا من الله سبحانه وتعالى لمريم على إيمانها وصلاحها وعناية بوليدها السيد المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام.

وبعد ولادتها أتت السيدة مريم عليها السلام قومها تحمل مولودها عيسى عليه السلام على يدها في بيت لحم فلما رءاها قومها قالوا لها: لقد فعلت فعلة منكرة عظيمة، وإنّ أباك لم يكن رجل سوء ولم تكن أمك زانية، وظنوا بها السوء وصاروا يوبخونها ويؤنبونها وهي ساكتة لا تجيب لأنها أخبرتهم أنها نذرت للرحمـٰن صومًا، ولما ضاق بها الحال أشارت إلى عيسى عليه السلام أن كلموه فعنده جواب ما تبغون، عندها قالوا لها متعجبين: ما أخبر الله به بقوله ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والازدراء إذ لا تردين علينا بكلام، عند ذلك أنطق الله تبارك وتعالى بقدرته الرضيع «عيسى» عليه السلام وكان عمره أربعين يومًا ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴿٣٠﴾﴾ وهذا اعتراف منه عليه السلام بالعبودية لله تبارك وتعالى وهذه أول كلمة نطق بها عيسى وهو في المهد ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ وهذا إخبار عما قضى الله تعالى له وحكم له به ومنحه إياه مما سيظهر ويكون، وفي ذلك تبرئة لأمه مما نسبوا إليها واتهموها به، فإن الله تعالى لا يعطي النبوة لمن هو كما زعموا، ثم قال لهم عيسى عليه السلام ما أخبر الله تعالى به ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴿٣١﴾﴾ أي نفاعًا حيثما توجهت معلمًا للخير، وذلك أن عيسى عليه السلام كان يدعو حيث كان إلى عبادة الله تعالى وحده وأن لا يُعبَد شيء غيره. قال تعالى إخبارًا

وحكاية عن عيسى ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ[1] مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ وهذا أيضًا إخبار عما قضى الله له ومنحه إياه ممّا سيظهر ويكون، فكان نبي الله عيسى عليه السلام يصلي لله تعالى كما أمره، ويحسنُ إلى عباد الله بالزكاة وبذل الأموال والعطايا للمحتاجين والفقراء، ولم يكن عليه السلام فظًا ولا غليظًا، قال تعالى إخبارًا عن عيسى عليه السلام وما أنطقه به في المهد ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ[2] وَيَوْمَ أَمُوتُ[3] وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا[4] ﴿٣٣﴾﴾ فلما كانت هذه المواطن الثلاثة أشقّ ما يكون على ابن ءادم جعل الله تعالى السلامة على نبيه عيسى عليه السلام في هذه المواطن الثلاثة يوم ولادته وعندما يموت وعند البعث يوم القيامة.

فائدة: بعد أن تكلّم عيسى عليه السلام وهو في المهد واعترف بالعبودية لله تعالى ودفع التهمة الباطلة عن أمه مريم إلى ءاخر كلامه وهو في المهد، أمسك عن الكلام حتى بلغ المبلغ المعتاد في نطق الصبيان فأنطقه الله تعالى بالحكمة وحسن البيان.

(١) أي أمرني بها... تفسير البغوي (٥/ ٢٣٠).
(٢) أي السلامة عند الولادة من طعن الشيطان... تفسير البغوي (٥/ ٢٣٠).
(٣) أي عند الموت من الشرك... تفسير البغوي (٥/ ٢٣٠).
(٤) أي من الأهوال... تفسير البغوي (٥/ ٢٣٠).

اختلاف الناس في أمر عيسى ابن مريم عليهما السلام وبيان أن عيسى هو عبد الله ورسوله

قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة مريم].

أي أن عيسى عليه السلام هو عبد من عباد الله مخلوق من امرأة وهي أمه مريم، والله تعالى لا يعجزه شيء ولا يؤوده ويتعبه شيء، بل هو يوجد ما أراد وجوده بسرعة أي من غير تأخر عن الوقت الذي أراد وجوده فيه من غير أن يلحقه تعب ولا مشقة، وقال الله تبارك وتعالى ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة مريم] أي فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم في أمر عيسى عليه السلام فقال قائل من اليهود إنه ابن امرأة زانية واستمروا على كفرهم وعنادهم قال تعالى ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا[1] ﴿١٥٦﴾﴾ [سورة النساء].

وقابلهم ءاخرون في الكفر فقالوا: هو الله، وقال ءاخرون: هو ابن الله، وقال ءاخرون: الله ثالث ثلاثة.

وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهؤلاء هم النّاجون المنصورون، وقد توعد الله تعالى الكافرين بالعذاب يوم القيامة قال الله تبارك وتعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ[2] ﴿٣٧﴾﴾، وقد قال الرسول ﷺ: «**من شهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**» اهـ. رواه البخاري.

---

(١) حتى رموها بالزنى... تفسير البغوي (٢/ ٣٠٦).
(٢) يعني يوم القيامة... تفسير البغوي (٥/ ٢٣١).

ومعنى «وروح منه» أن المسيح روحٌ صادرة من الله تعالى خلقًا وتكوينا وليس المعنى أن المسيح جزءٌ من الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى ليس أصلا لغيره ولا هو فرعٌ عن غيره وليس روحًا ولا جسدًا ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص]، ودليلُ ما ذكرناه قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾ [سورة الجاثية] أي أن جميع ما في السموات وما في الأرض من الله تعالى خَلقًا وتكوينًا وليس المعنى أنها أجزاءٌ منه تعالى.

وقد قال تعالى بعد ذكر قصة عيسى عليه السلام وما كان من أمره في سورة ءال عمران ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ [سورة ءال عمران]، وقال تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٢ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٣﴾ [سورة ءال عمران].

ظهور العجائب على سيدنا عيسى عليه السلام في صباه وبدء نزول الوحي عليه

لما وُلد عيسى ابن مريم عليه السلام ظهرت أمور عجيبة تعظيمًا لشأن هذا المولود ولما سيكون من أمره في المستقبل من جعله رسولًا يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى وحده وإلى الشرع القويم الذي أنزل عليه.

فقد روي أنه لما ولد السيد الجليل عيسى ابن مريم عليه السلام أصبحت الأصنام التي كانت تعبد من دون الله في زمان ولادته بكل أرض مقلوبة منكوسة على رؤوسها ففزعت الشياطين وارتاعت فلم تدرِ ما سبب ذلك، فساروا عند ذلك مسرعين حتى جاؤوا إبليس اللعين فأخبروه بذلك، فطار إبليس فمر

بالمكان الذي ولد فيه عيسى عليه السلام، فلما رأى الملائكة محدقين بذلك المكان علم أن ذلك الحدث بسبب ولادة ذلك المولود، فأراد إبليس اللعين أن يأتيه فلم تمكنه الملائكة من الدنو منه.

قال رسول الله ﷺ **«ما من بني ءادم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان غير مريم وابنها ثم يقول أبو هريرة إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم»** اهـ. رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري.

ولما بلغ ذلك المولود الرضيع من العمر ثمانية أيام حملته أمه إلى الهيكل فختن، لأن الختان من الفطرة وهو من سُنن الأنبياء من عهد نبيّ الله إبراهيم عليه السلام، وسمَّت مريم عليها السلام مولودها «عيسى» كما أمرها جبريل عليه السلام حين بشّرها به بأمر من الله تبارك وتعالى.

كان عيسى ابن مريم عليهما السلام يظهر عليه العجائب بقدرة الله تعالى، فلما ترعرع عليه السلام وفشا أمره بين اليهود أرادوا به سوءًا وأغروا ملك الروم «هيرودس» بقتله، فلما علمت أمه مريم عليها السلام بمؤامرة اليهود خافت عليه وانطلقت به إلى مصر وهي الربوة التي ذكرها الله تعالى في القرءان بقوله ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [سورة المؤمنون/ ٥٠] أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه جعل عبده ورسوله عيسى المسيح عليه السلام وأمه مريم ءاية للناس أي علامة وحجة قاطعة على قدرته تعالى على ما يشاء، وكذلك أخبر تعالى في هذه الآية بأنه ءاوى عبده عيسى وأمه مريم عليهما السلام إلى ربوة من الأرض ذات قرار ومعين يجري فيها الماء، وهي على أحد الأقوال بلاد مصر التي قصدتها مريم عليها السلام حاملة مولودها عيسى المسيح عليه السلام، فترعرع هناك ونشأ وعاش بين ربوعها اثنتي عشرة سنة، وقيل: إنه لما بلغ سبع سنين أسلمته أمه إلى «الكُتَّاب» فجعل لا يعلّمه المعلم شيئًا إلا بادرهُ إليه.

يقال إنه بعد موت ملك الروم «هيرودس» أمر الله تعالى عبده عيسى عليه

السلام أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت المقدس في فلسطين، وقدم عليه ابن خال أمه يوسف النجار فحمله وأمه على حمار حتى جاء بهما إلى بيت المقدس، وقيل: نزل هو وأمه بقرية يقال لها «ناصرة» وبها سُميت «النصارى». ولمّا بلغ عيسى عليه السلام الثلاثين من العمر أوحى الله تعالى إليه أن يبرزَ للناس ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى، فصار عليه السلام يدعو الناس إلى ذلك ويقول لهم: أيها الناس اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا وءامنوا بأني رسول الله إليكم، فآمن به اثنا عشر شخصًا يُسمَّون «الحواريين» فأخذ عيسى عليه السلام يُوزعهم في نواحي الأرض يدعون إلى عبادة الله تعالى وحده ونشر دين الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والملائكة، وقد أيده الله تعالى بالمعجزات الباهرات فكان عليه السلام يشفي المرضى والزّمنى والأكمه والأبرص وغيرهم من المرضى حتى أحبه الناس وكثر أتباعه وعلا ذكره وشأنه بين الناس، وكان عليه السلام يقضي أيامه في التجوال والسياحة في الأرض لدعوة الناس إلى دين الإسلام.

دعوته عليه الصلاة والسلام والكتاب الذي أُنزل عليه وأتباعه المؤمنون

أرسل الله تبارك وتعالى عيسى إلى بني إسرائيل يدعوهم لدين الإسلام وعلّمه التوراة وأنزل عليه كتابًا سماويًّا وهو الإنجيل الذي فيه دعوة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد خالق كل شىء وإلى الإيمان بأن عيسى عبد الله ورسوله، وفيه بيان أحكام شريعته، وفيه البشارة بنبي ءاخر الزمان وهو سيدنا محمد ﷺ، وفيه أيضًا تحريم الربا وكل ضار للعقل أو البدن وأكل لحم الخنزير، وفيه الأمر بالصلاة والصيام وغير ذلك من أمور الدين، وكان أصل دعوته شيئين إفرادُ الله بالعبادة والإيمان به أنه نبيّ، ولم يسم نفسه ابنًا لله ولا سمى الله أبًا له وإنما المذاهب الثلاثة التي هي أصول اختلاف النصارى في عيسى عليه السلام هي من تأليف

بولس، وكانت أول كلمة أنطقه الله تعالى بها وهو في المهد ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾(١) حيث اعترف بالعبودية لله تعالى وحده رب كل شيء وخالق كل شيء. ولقد حَذَّر عيسى المسيح عليه السلام قَومَه بني إسرائيل من الكفر والإشراك وبَيَّن لهم أنه من يشرك بالله تعالى فقد حرّم الله تعالى عليه الجنة ومأواه نار جهنم خالدًا فيها أبدًا، قال الله عز وجل ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[سورة المائدة/ ٧٢]، أي ليس للكافرين أنصار يحمونهم من عذاب الله في الآخرة.

كان أتباعُ عيسى المسيح عليه السلام الذين صدّقوه واتبعوه وءامنوا به مسلمين مؤمنين، وكان من أتباعه وتلامذته وصفوته وخاصته «الحواريون» الذين كانوا أعوانًا له ينشرون دعوته وشرعه ويعلمون الناس الخير وتعاليم الشرع الحنيف الذي أوحي به إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ(٢) إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة المائدة/ ١١١] وإنما طلبوا شهادة عيسى ابن مريم عليه السلام بإسلامهم تأكيدًا على إيمانهم، لأن الرسل والأنبياء يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم، وفي هذا دليل أيضًا على أن الإسلام والإيمان متلازمان.

يقول الله تبارك وتعالى في بيان حال عيسى وأمه مريم عليهما السلام ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[سورة المائدة/ ٧٥].

ويقول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا

---

(١) أقرّ على نفسه بالعبودية لله عز وجل أول ما تكلم لئلا يتخذ إلـٰهًا... تفسير البغوي (٥/ ٢٣٠).
(٢) ألهمتهم وقذفت في قلوبهم... تفسير البغوي (٣/ ١١٦).

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الصف/ ٦].

وقال الله عز وجلّ في بيان الكتاب الذي أنزله على نبيه عيسى ابن مريم عليهما السلام ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة/ ٤٦].

وقال الله تبارك وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [سورة الصف/ ١٤]. أولئك أمّة عيسى عليه السلام الصادقون الذين كانوا على هدي نبيهم عيسى عليه السلام وعلى طريقته وتعاليمه حتى بعد رفعه إلى السماء إلى مائتي سنة، ثم بعد ذلك صار عدد المؤمنين منهم ينقصُ شيئًا فشيئًا وصار يكثر الذين يعبدون عيسى عليه السلام ويحرّفون ما جاء به من تعاليم سماوية.

فائدة: يروى أن التوراة أنزلت على موسى لست ليال خلون من شهر رمضان، وأنزل الزبور على داود لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان وذلك بعد التوراة بأربعمائة واثنتين وثمانين سنة، وأنزل الإنجيل على عيسى لثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عامًا، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ لأربع وعشرين من شهر رمضان.

فائدة: بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء بمائتي سنة حُرّف دينه القويم وحُرّفت معاني الإنجيل الذي أنزل عليه، ثم عمد هؤلاء المحرّفون إلى تحريف ألفاظه فحذفوا منه أغلب الألفاظ، وصار أحدهم يكتب إنجيلًا ويقول: هذا هو الإنجيل الأصلي، حتى كثر عددها وبلغت نحو سبعين كتابًا كلها باسم الإنجيل المنزل فجمعهم الملك «قُسطنطين» الذي كان في الأصل وثنيًّا ثم دخل في دين

المحرِّفين وطلب منهم أن يجمعوا أمرهم، فاتفقوا على أربعة كتب كلها فيها تحريفٌ للإنجيل الأصلي الذي أُنزل على نبي الله عيسى عليه السلام، ثم أحرقوا بقية الكتب وانقسموا نحو سبعين فرقة، قال الله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ[1] وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة المائدة]. ثم بعد ذلك صار المسلمون من أتباع عيسى يفرون بدينهم إلى الجبال يعبدون الله تعالى وحده، ومع مرور الأيام قلّوا حتى لم يبق منهم أحد بعد ذلك لا في الجبال ولا في المدن وهذا قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ. وقد مدح الله تعالى في القرءان الأولين الذين ترهبوا مع التوحيد والإيمان على شريعة عيسى وذم الآخرين الذين قلدوهم على غير ما كانوا عليه في الحقيقة فقال تعالى ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ[2] فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحديد].

تنبيه: الرهبانية التي ابتدعها أتباع المسيح عليه الصلاة والسلام مدحهم الله عليها بقوله في كتابه العزيز ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحديد] فالله تبارك وتعالى مدح في هذه الآية المسلمين المؤمنين المتّبعين لنبيهم عيسى عليه السلام بالإيمان والتوحيد لأنهم كانوا أهل رأفة ورحمة ولأنهم ابتدعوا بدعة حسنة وهي «الرهبانية»، وهذه الرهبانية هي الانقطاع عن الشهوات حتى أنهم انقطعوا عن

(١) أي لستم على شىء من الدين حتى تعلموا بما في الكتابين من الإيمان بمحمد ﷺ والعمل بما يوجبه ذلك منهما... تفسير القرطبي (٦/ ٢٤٥).

(٢) أي الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام... تفسير البغوي (٨/ ٣٨).

الزواج رغبة في تجردهم لعبادة خالقهم، فقوله تعالى ﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ وَجَعَلۡنَا﴾ أي نحن ما فرضناها عليهم إنما هم أرادوا التقرب إلى الله تعالى، فالله تعالى مدح هؤلاء الصادقين من أتباع عيسى عليه السلام على ما ابتدعوا مما لم يُنصَّ لهم عليه في الإنجيل الذي أُنزل على نبيهم عيسى عليه السلام ولا قال لهم المسيح عليه السلام افعلوا هذه الرهبانية وإنما هم أرادوا المبالغة في طاعة الله تعالى والتجرد لعبادته بترك الانشغال بالزواج ونفقة الزوجة والأهل، لذلك كانوا يبنون الصوامعَ وهي البيوت الخفيفة من طين أو من غير ذلك على المواضع المنعزلة عن البلد ليتجردوا لعبادة خالقهم سبحانه وتعالى.

تعريف المعجزة

اعلم أن السبيل إلى معرفة النبي المعجزة وهي أمرٌ خارقٌ للعادةِ يأتي على وَفْقِ دَعْوَى من ادَّعَوا النبوة سالم من المعارضة بالمثل.

فما كان من الأمور عجيبًا ولم يكن خارقًا للعادة فليس بمعجزةٍ، وكذلك ما كان خارقًا لكنه لم يقترن بدعوة النبوة كالخوارق التي تظهر على أيدي الأولياء أتباع الأنبياء فإنه ليس بمعجزةٍ بل يسمى كرامةً.

وكذلك ليسَ من المعجزةِ ما يُسْتَطَاعُ معارضته بالمثل كالسحر فإنه يُعارض بسحر مثلِهِ.

والمعجزة قسمان قسمٌ يقع بعد اقتراحٍ من الناس على الذي ادَّعى النبوة وقسم يقع من غير اقتراح.

فالأوَّل نحو ناقة صالح التي خرجت من الصخرة. فقد اقترح عليه قومه ذلك بقولهم إن كنت نبيًا مبعوثًا إلينا لنؤمن بك فأَخرِج لنا من هذه الصخرة ناقةً وفصيلها فأَخْرَج لهم ناقةً معها فصيلها أي ولدها فاندهشوا وءامنوا به لأنه لو كان كاذبًا في قوله إن الله أرسلَهُ لم يأتِ بهذا الأمر العجيبِ الخارقِ للعادةِ الذي

لم يستطع أحدٌ من الناس أن يُعارِضَهُ بمثلِ ما أتى به، فَثَبَتَت الحُجَّةُ علَيْهِم ولا يَسَعُهُم إلا الإذعانُ والتَّصديق لأنَّ العقلَ يُوجبُ تصديقَ من أتى بمثلِ هذا الأمر الذي لا يُسْتَطَاعُ معارضَتُهُ بالمثل مِن قِبَلِ المعارضينَ، فمن لم يُذْعِنْ وعاندَ يُعَدًّ مُهْدِرًا لِقِيمةِ البُرهانِ العقليّ.

معجزاتُ سيّدنا عيسى عليه السلامُ المتواليات

لما بلغَ سيدُنا عيسى المسيحُ عليهِ السلامُ الثلاثينَ من عُمره، أوحَى الله تعالى إليهِ أن يدعُوَ الناسَ إلى عبادَةِ الله عزَّ وجلَّ، فخرجَ يجوبُ البلادَ، ويجولُ في القُرَى، يدعو إلى الإسلامِ قَائلًا للناسِ: «اعبُدُوا الله وحدَهُ ولا تُشرِكوا بهِ شيئًا وءامنوا بأني رسولُ الله إليكم» اهـ. فأول من ءامنَ به اثنا عَشَرَ شخصًا يُسَمَّوْنَ «الحوارِيينَ».

سيدنا عيسى وضبغ الثياب

يُرْوَى أنه كانَ من أولِ معجزاتِ سيدِنا عيسى عليه السلامُ أن والدتَهُ السيدةَ مريمَ عليها السلامُ دفعته مرات عديدة للقيام بأعمال شتى، وءاخِرُ مَنْ دفعتهُ إليهم كانوا جماعةَ صابِغي الثيابِ يُبيّضُونَها ويُلوّنُونَها، فأرادَ صاحبُ العمل السفرَ، فقالَ لسيدنا عيسى عليه السلام عِندي ثيابٌ كثيرةٌ مختلِفةُ الألوانِ، وقدْ علَّمتُكَ الصِّــبغةَ فاصبغْ كلَّ واحدةٍ منها باللونِ الذي حدَّدتُهُ لكَ فقد وضعْتُ خيطًا من اللونِ المطلوبِ علَيْها، فَسَخَّنَ سيدُنا عيسى وعاءً واحدًا كبيرًا وَوَضَعَ فيه أَلْوانًا عديدةً، ثم وَضَعَ الثيابَ كُلَّها في هذا الوعاءِ وقال كوني بإذنِ الله على ما أُرِيدُهُ منك، فعادَ صاحبُ العملِ من السفرِ والثيابُ كلُّها في الوِعاءِ، فلما رَءَاها دُهِشَ وقال لقد أفسدتَها، فأخرجَ سيدُنا عيسى ثوبًا أحمرَ وثوبًا أصفرَ وءاخرَ أخضرَ إلى غيرِ ذلك مما كانَ على كلِ ثوبٍ مكتوبٍ عليه صِبْغَتُهُ، فعجِبَ صاحبُ العملِ وعلمَ أن ذلكَ من الله فآمنَ بسيدنا عيسى عليهِ السلامُ وَدَعَا الناسَ إليه فآمَنُوا

به، وكان هذا الرجل من جُملةِ الحواريينَ الذين كانُوا يَشُدُّونَ أَزْرَ سيدِنا عيسى في دعوتِهِ إلى دينِ الله تعالى.

سيدنا عيسى وصيد السمك

وتوالتِ المعجزاتُ، فمَرَّ يومًا بجماعةٍ يَصْطَادُونَ السَّمَكَ ورئيسُهُمْ يُدْعَى «شَمْعُونَ»، فقالَ لهمْ سيدُنا «عيسى»: «ما تصنعون؟» قالوا: «نَصِيدُ السَّمكَ»، قال: «أفلا تمشونَ حتى نصيدَ الناسَ؟» أي لنهديهم إلى الإسلام، قالوا: «ومَن أنتَ؟» فأجابَ: «أنَا عيسى ابنُ مريمَ عبدُ الله ورسولُه»، فسألُوه دليلًا يدُلُّهم على صِدْقِهِ في ما قالَ، وكان «شمعونُ» قد رَمَى بِشَبَكَتِهِ في الماءِ تلكَ الليلةَ فما اصطادَ شيئًا، فأمرَهُ سيدنا «عيسى» عليه السلامُ بإلقاءِ شَبَكَتِهِ مرةً أُخرى ودعا الله تعالى متضرعًا إليه، فما هي إلا لحظاتٌ يسيرةٌ حتى اجتمعَ في تلكَ الشَّبَكَةِ من السَّمَكِ ما كادتْ تتمزَّقُ من كَثرتِهِ، فاستعانوا بأهلِ سفينةٍ أُخْرَى وملَؤوا السفينتَيْنِ سمكًا، فعندَ ذلك ءامنُوا بِهِ وانطلقُوا معه، فصارُوا من جُمْلَةِ «الحواريّينَ»، فلما ءامَنُوا بسيدنا عيسى عليهِ السلامُ صَارُوا يَصْطَادُونَ الناسَ ليَهْدُوهم إلى دينِ الإسلامِ، وسُمُّوا «بالحواريينَ» لبَيَاضِ ثيابِهم وقيلَ بل لأنَّهُمْ كانوا أنصارَ سيدنا عيسى عليهِ السلامُ وأعوانَهُ المخلصينَ في محبَّتِهِ وطاعَتِهِ وخِدْمَتِهِ.

لم يكنِ اليهودُ بعيدِينَ عن أخبارِ تلكَ المعجزاتِ الباهراتِ التي كانتْ تَظْهَرُ على يد سيدِنا عيسى المسيحِ، وشَعَرُوا وكأنَّ البِسَاطَ يُسْحَبُ من تَحْتِهِمْ وأنه يُهَدِّدُ كراسِيَّهُم ومناصِبَهُم، فكمْ غرُّوا أُناسًا وأضلُّوهم وحَادُوا بهم عن طريقِ الحقِ لمآربِهِمُ الدنيئةِ الخبيثةِ، وها هوَ سيدُنا عيسى الثابتُ القويُّ بالحُجةِ والبرهانِ، يَفْضَحُ أسرارَهُمْ، ويَنْشُرُ بين الناسِ مَخَازِيَهُم، فأجمعوا أمرَهُمْ بينَهُمْ على محاربَتِهِ أينما حَلّ، وتكذيبِهِ حيثُما ذَهَبَ.

تصوير الطين كهيئة الطير

ويومًا قالوا له إن كنت صادقًا في قولك ودعوتك فصوِّر لنا خُفَّاشًا من الطين واجعله يطير، فقام سيدُنا عيسى متوكّلًا على الله تعالى وأخذَ[1] طِينًا وجعلَ مِنهُ خُفَّاشًا ثم نفخَ فيه فقامَ يطيرُ بإذنِ الله بينَ السماءِ والأرضِ وَسَطَ دَهْشَةِ الناظرينَ، ولكنهُ ما إنْ غابَ عن أعيُنِهِمْ حتى سَقَطَ مَيْتًا، فاغتاظَ اليهودُ من حصول هذه المعجزة طَلَبُوا الخُفَّاشَ لأنهُ مِنْ أَعْجَبِ وأغربِ الخَلْقِ، ومِنْ أَكْمَلِ الطُّيُورِ خَلْقًا، لأنَّ لأنثاهُ ثَدْيَيْنِ وأسنانًا وأُذُنَيْنِ ومن عجائبِهِ أنه من لحمٍ ودم يطيرُ بغير ريشٍ، ويلدُ كما يلدُ الإنسانُ، ولا يبيضُ كما تبيضُ سائرُ الطيورِ، فيكونُ له الضَّرْعُ يَخْرُجُ منه اللبنُ ولا يُبْصِرُ في ضوءِ النهارِ ولا في ظُلْمَةِ الليلِ، وإنما يرى في ساعتينِ ساعةً بعد غُرُوبِ الشمسِ، وساعةً بعد طلوعِ الفجرِ، ويضحَكُ كما يضحَكُ الإنسانُ، وتحيضُ أنثاهُ كما تحيضُ المرأةُ وكان تسويةُ الطينِ والنفخُ من سيدِنا عيسى والخَلْقُ من الله عزَّ وجلَّ.

إبراء الأكمه

ومن معجزاتِهِ عليهِ السلامُ أَنَّهُ كان يُبْرِئُ الأَكْمَهَ[2] الذي يُولَدُ أَعْمَى، والأَبْرَصَ بإذنِ الله، والبَرَصُ مرضٌ يُصِيبُ الجلدَ ويكونُ على شكلِ بياضٍ يُغَطِّي مِسَاحاتٍ من الجِسْمِ فَيَنْفِرُ الناسُ مِنْ صاحبِهِ، وخُصَّ هذانِ المَرَضَانِ بالذِكْرِ لأنهما دَاءانِ مُعْضِلانِ، وكانَ الغالبُ على زَمَنِ سيدنا عيسى الطِبَّ، فأراهُمُ الله المعجزةَ على يديْ سيدنا عِيسى مِنْ جِنْسِ ذلكَ، وكانَ يُحْيِي المَوْتَى بإذنِ الله، حتى قِيلَ إنهُ أحيا أربعةً من الخَلْقِ بمشيئةِ الله وقدرتِهِ، وكان سيدنا حزقيلُ قبل سيدنا عيسى أحيا ثمانيةً وهو نبيٌّ من أنبياءِ الله من بني إسرائيلَ كما أن سيدنا عيسى من بني إسرائيلَ.

---

(١) انظر ص٤١.

(٢) انظر ص٤١-٤٢.

إحياء الموتى بإذن الله

ويُروى أنه أول ما أحيا[1] من الموتى ابنة امرأة كانت قاعدة عند قبر وهي تبكي فقال لها: ما لك أيتها المرأة؟ فقالت له: ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها، وإني عاهدت ربي أن لا أبرح من موضعي هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله لي فأنظر إليها، فقال لها نبي الله عيسى عليه السلام: أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت؟ قالت: نعم، فصلى عليه السلام ركعتين لله تعالى ثم جاء فجلس عند القبر، فنادى: يا فلانة، قومي بإذن الله الرحمـٰن فاخرجي، فتحرك القبر، ثم نادى المرة الثانية فانصدع القبر بإذن الله، ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب، ثم قال لها عيسى عليه السلام: ما أبطأ بك عني فقالت له: لما جاءتني الصيحة الأولى بعث الله لي ملكًا فركّب خَلقي، ثم جاءتني الصيحة الثانية فرجع إلي روحي، ثم جاءتني الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسي وحاجباي وأشفار عيني من مخافة القيامة، ثم أقبلت على أمها فقالت لها: يا أماه ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين؟ يا أماه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا، ثم كلمت نبي الله عيسى عليه السلام وقالت له: سل ربي أن يردني إلى الآخرة وأن يهون عليّ كرب الموت فدعا عليه السلام ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض فسبحان القادر على كل شيء، ولما بلغ اليهود خبر هذه الحادثة ازدادوا على عيسى عليه السلام غضبًا.

ومن الذين أحياهُم سيدنا عيسى عليه السلام بإذنِ الله أحدُ أصدقائِه واسمُه عَازَرُ، إذ إنّه لـمّا مرضَ أرسلتْ أخْتُهُ إلى سيدنا عيسى عليهِ السلامُ أنَّ عازَرَ يموتُ فسارَ إليهِ وبينهما ثلاثةُ أيام فوصلَ إليه فوجدَهُ قد ماتَ، فأَتى قبرَهُ فدعا الله عزَّ وجلَّ وقالَ قُمْ بإذنِ الله فقامَ عازرُ بإذنِ الله وعاشَ ووُلِدَ لهُ، ومنَ الذينَ أُحْيُوا بإذنِ الله على يَدَيْ سيدنا «عيسى المسيح» ابنُ العجوزِ فإنهُ مُرَّ بهِ محمولًا

---

(١) انظر ص٤٢.

على سريره فدَعَا له سيدنا «عيسى» عليه السلامُ أن يقوم بإذن الله، فقامَ ونزلَ عن أكتافِ الرجالِ ولَبِسَ ثيابَهُ ثم حَمَلَ سريرَهُ ورَجَعَ إلى أهلِهِ.

وكذلك فَعَلَ مَعَ أَحَدِ الملوكِ إذ كان محمولًا وجرى معه ما جرى مع ابنِ العجوزِ. لكنَّ اليهودَ الحَسَدَةَ لما رَأَوْا ذلكَ قالوا تَعَنُّتًا: إنكَ تُحيِي من كانَ موتُهُ قريبًا، فلعلَّهمْ لم يَمُوتوا بل أُصِيبُوا بإغماءٍ أو سكتةٍ، فَأَحْيِ لنا «سامَ بنَ نوحٍ»، وكان لسيدِنا «نوحٍ» عليه السلامُ أربعةُ أبناء، ثلاثةٌ أسلموا ونَجَوْا معهُ في السفينةِ وهم: «سامٌ» و«حامٌ» و«يافِثُ» أما الابنُ الرابعُ وهو «كَنْعَانُ» فقد أَبى أن يؤمنَ ولم يصعَدِ السفينةَ معَ والدِهِ وإخوتِهِ فماتَ غَرَقًا. فقال سيدنا «عيسى» عليه السلامُ: «دُلُّوني على قبرِهِ»، فخرجَ سيدنا «عيسى» وخرجَ القومُ معهُ حتى انتهَوْا إلى قَبْرِهِ، فدعا الله فخرجَ «سام»، وقدْ كانَ مرَّ من وقتِ موتِهِ أكثرُ من أربعةِ ءالافِ سنةٍ، فالتفتَ «سامٌ» وقال للناسِ مشيرًا إلى سيدِنا «عيسى المسيح»: «صَدِقوه، فإنه نبيٌّ» ثم عادَ إلى حالِهِ، فآمنَ به بعضُهُم وكذَّبَهُ البعضُ الآخرُ وقالوا: هذا سِحْرٌ. ورُوِيَ أن سيدنا «عيسى» عليه السلامُ كان في إحيائِهِ للموتى بإذنِ الله يَضرِبُ بعصاهُ الميِّتَ أو القبرَ أو الجُمْجُمَةَ فيحيا الإنسانُ ويُكَلِّمُهُ ويعيشُ.

كان سيدنا عيسى ينبئ قومه بما يأكلونه ويدخرونه[1]

ومن معجزاتِهِ ﷺ أنهُ كانَ يُنْبِئُ قومَهُ بما يأكلونَهُ ويدَّخِرُونَهُ في بيوتِهِمْ، وذلكَ أنه لما أَحْيا لهمُ الموتى بإذنِ الله طلبوا منه ءايةً أُخْرَى وقالوا: أَخبِرْنا بما نأكلُ في بيوتِنا وما ندَّخِرُ للغدِ، فأخبرَهُمْ، فقالَ: «يا فلانُ، أنتَ أكلتَ كذا وكذا، وأنتَ أكلتَ كذا وكذا وادّخرتَ كذا وكذا.

قال تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ

(١) انظر ص٤٢-٤٣-٤٤.

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾﴾ [سورة ءال عمران].

وقال الله تعالى ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾﴾ [سورة المائدة].

فائدة: قال العلماء: كانت معجزة كل نبيّ في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة، فبعث الله تعالى عبده موسى عليه السلام بمعجزة بهرت الأبصار وحيّرت كل سحّار، فلما استيقن السحرة أنها معجزة من عند العظيم الجبار انقادوا ودخلوا في دين الإسلام.

ونبي الله عيسى عليه السلام بعث في زمان يكثر فيه التباهي والتسابق في الحذق والمهارة من الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم بمعجزات لا سبيل لأحد منهم إليها لأنه مؤيد من الله تبارك وتعالى وكانت هذه المعجزات دليلًا على صدقه في ما يبلغه عن الله تعالى، فأنى للطبائعي إبراء الأكمه الذي ولد أعمى، وكذلك الأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن من دون استعمال أعشاب وعقاقير، وأنى للطبيب أن يحيي الميت من قبره كما فعل عيسى عليه السلام، فيُعلم بدلالة العقل أن عيسى عليه السلام نبي الله ورسوله.

وكذلك سيدنا محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء في قومه العرب حتى بلغوا في شدة المباهاة بالفصاحة والبلاغة في أشعارهم أن كان المتفوق فيهم يعمل قصيدة فيعلقها على الكعبة ليجد الشهرة بين العرب لأنهم كانوا يجتمعون في مكة باسم الحج مع أنهم كفار يعبدون الأوثان تقليدًا لأجدادهم منذ أيام إسماعيل عليه السلام، فجاءهم سيدنا محمد بكتاب أنزله الله عليه عجزوا عن الإتيان بسورة واحدة من مثله في الفصاحة والبلاغة، فتحداهم وكان في تحديه ما أخبر الله به في القرءان بقوله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [سورة الإسراء].

قال الله تبارك وتعالى ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [سورة الحديد] أي بالمعجزات، وهكذا كل نبي قرن الله بدعوته من المعجزات ما هو شاهد له بصدقه تفريقًا بين النبي وبين المتنبي. وليس القرءان هو المعجزة الوحيدة لسيدنا محمد ﷺ بل له من المعجزات الكثير الكثير منها شجرة دعاها فمشت من منبتها من غير أن تنقلع إليه وقامت بين يديه فاستشهدها فشهدت أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله وذلك عند عرضه الإسلام على رجل من العرب طلب منه شاهدًا على نبوته فقال له: هذه الشجرة، وهذا أغرب وأعجب من إحياء الميت بعدما كان حيًّا قبل ذلك ثم عاد إلى ما كان عليه بعد موته لأن هذه الشجرة لم يسبق لها حياة تؤهلها للنطق والمعرفة بشأنه.

سيّدنا عيسى ابن مريم عليهما السلام والأرغفة الثلاثة

روي أنَّ عيسى ابنَ مريمَ عليهِ السلامُ صَحِبَهُ رَجُلٌ وقال: يا نبي الله أكونُ معك، فانطلقا فانتهيا إلى شط نهرٍ فجلسا يتغدّيَانِ ومعهما ثلاثةُ أرغفةٍ فأكلا رغيفينِ وبقيَ رغيفٌ فقامَ عيسى عليه السلامُ إلى النهَرِ فشرِب منه ثمَّ رجَعَ فلم يجِدِ الرغيفَ فقال للرجل من أخذ الرغيف؟ قالَ لا أدري، فانطلقَ ومعه الرجلُ فرأى ظَبيةً (غزالة) ومعها ولدان لها فدعا واحدًا فأتاهُ فذبحهُ واشتوى منه فأكلَ هو وذلك الرجلُ ثم خاطَب عيسى عليهِ السلامُ الظبي بعد أن ذبحَهُ وأكلاَ منه فقال له قم بإذنِ الله عز وجل فقامَ، فقال للرجلِ أسألُكَ بالذي أراكَ هذه الآية مَن أخذ الرغيف؟ قال لا أدري، فانطلقا حتى انتهيا إلى مَفازَة (فلاة) فجمع عيسى ﷺ تُرابًا ورملًا كثيبًا ثم قالَ له كُنْ ذهبًا بإذنِ الله عزَّ وجلَّ، فصارَ ذهبًا، فقَسَّمَهُ ثلاثةَ أقسامٍ وقال ثلثٌ لي وثلثٌ لك وثلثٌ للذي أخذ الرغيف فقال أنا الذي أخذتُ الرغيفَ، فقال له سيدنا عيسى عليه السلام كلّه لك وفارقه.

فانتهى إلى هذا الرجل الذي أخذ الذهب رجلانِ أرادا أن يأخذا منه الذهب ويقتلاهُ فقالَ لهما هو بيننا أثلاثًا فقبِلا ذلك فقال يذهب واحد إلى القرية حتى يشتري لنا طعامًا فذهب واحدٌ واشترى طعامًا وقال في نفسه: «لأي شيء أقاسمُهما هذا المالَ؟ أنا أجعلُ في هذا الطعام سُمًّا فأقتلُهما وءاخذُ هذا المالَ جميعه فجعل في الطعام سمًّا، وقالا هما في ما بينهما لأيّ شيءٍ نجعلُ له الثلثَ إذا رجع إلينا قتلناهُ واقتسَمْنا المال نصفين، فلما رجع إليهما قتلاهُ ثم أكلا الطعامَ المسمومَ فماتا، فبقي الذهبُ في المفازةِ (الفلاةِ) وأولئكَ الثلاثةُ قتلى عنده، فمرّ عليهم عيسى عليه الصلاةُ والسلامُ وهم على تلك الحال، فقال لأصحابه: هذهِ الدُّنيا فاحذروها.

مائدةُ سيّدنا عيسَى عليه السلامُ

كان سيدُنا عيسى قد أمر الحواريينَ وهم خِيْرَةُ من ءامنُوا به عليه السلامُ، بصيامِ ثلاثينَ يومًا، فلما أتمُّوها فكانوا معَه في صحراءَ، وكان سيدُنا عيسى إذا خرَجَ تبِعَه ألوفُ الناس: بعضُهم أصحابُه، وبعضُهم يطلبونَ منه الدعاءَ لهم لمرضٍ بهم أو علةٍ، إذ كان فيهم أصحابُ عاهاتٍ وإعاقاتٍ، والبعضُ الآخرُ يَتْبَعُوْنَه للاستهزاءِ والتشويشِ.

سأل الحواريونَ سيدَنا عيسى عليه السلام إنزالَ مائدةٍ من السماءِ عليهم لتطمئن قلوبهم بأنَّ الله تبارك وتعالى قد تقبَّلَ صيامَهم، وتكون لهم عِيْدًا يُفطِرُون عليها يومَ فِطْرِهم، وطلبوا أن تكون كافيةً لأَوَّلِهِم وءاخرِهم ولغنيِّهم وفقيرِهم، ولكنّ سيدَنا عيسى وعَظَهم في ذلك وخاف ألا يقومُوا بشُكْرِ الله عليها كما يجب، وهم قد رأَوا الكثيرَ من المعجزاتِ، فلماذا يطلبونَ المزيدَ؟

وكان الجواب أنهم يريدونَ الأكلَ منها للتبركِ. ولما ألحُّوا عليه في ذلك قامَ إلى حيثُ كان يُصلي ولبِسَ ثيابًا من شَعَرٍ وأطْرَقَ رأسَه وبَكَى خوفًا من الله تعالى وأخَذَ يتضرَّعُ ويدعُو بأن يُجابُوا إلى ما طَلَبُوا، فاستجابَ الله عزَّ وجلَّ دعاءَه، ونزلت المائدةُ من السماءِ بين غمامتَيْنِ، غمامةٌ فوقَها وأخرى تحتَها، وحولها الملائكةُ، وصارَت تدنو شيئًا فشيئًا، وكلما اقتربت منهم يسأل عيسى المسيح ربه تعالى أن يجعلها رحمةً لا نِقْمَةً وأن يجعَلَها سلامًا وبَرَكَةً، فلم تزل تَدنُو حتى استقرّت بين يَدَي عيسى عليه السلامُ وهي مُغطَّاةٌ بمنديلٍ، فقام يكشِفُ عنها وهو يقولُ: «بسم الله خيرِ الرازقينَ» وإذ عليها من الطعامِ سبْعُ أسماكٍ كبيرةٍ وسَبْعَةُ أرغِفَةٍ وخَلٌّ وملحٌ ورُمَانٌ وعَسَلٌ وثِمارٌ وهم يجِدُونَ لها رائحةً طيبةً جدًا لم يكونوا يجدونَ مثلَها قبلَ ذلك.

بلَغَ الخبرُ اليهودَ فجاؤوا غَمًّا وكمَدًا ينظرونَ إليه فرأَوْا عجبًا،ثم أمَرَ سيدُنا

عيسى عليه السلامُ الحواريينَ بالأكلِ منها، فقالوا له: لا نأكُلُ حتى تأكُلَ، فقال عيسى: إنما يأكُلُ منها مَن طلَبها وسَألَها، فلما أبَوْا أن يبدأوا بالأكلِ منها أمَرَ الفقراءَ والمساكينَ والمرضى وأصحابَ العاهاتِ والمقعدينَ والعُميان وكانوا قريبًا من ألفٍ وثلاثمائةٍ أن يأكلُوا فأطاعوا، فأكَلُوا منها وحصَلَت بركاتُ هذه المعجزة العظيمةِ إذ شُفِيَ كلُّ من به عاهةٌ أو ءافةٌ أو مرضٌ مزمنٌ، وصار الفقراءُ أغنياءَ، فندِمَ الناسُ الذين لم يأكلوا منها لِمَا رأَوْا من إصلاحِ حالِ أولئك الذين أكلوا، ولما تزاحَمَ الناسُ على المائدةِ جعَلَ سيدُنا عيسى دَوْرًا لكل منهم، وكان يأكُلُ ءاخرهم كما يأكل أولُهم، حتى قيل: إنه كان يأكُلُ منها كل يومٍ سبعةُ ءالافِ شخصٍ.

ولما تمَّ أربعونَ يومًا أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلامُ: يا عيسى اجعَلْ مائدتِي هذه للفقراءِ دونَ الأغنياءِ، ثم أمرَهُم بأن لا يخونُوا فيأكل منها غنيّ وأن لا يدَّخِروا ولا يرفَعُوا من طعامها ويخبئوه لغد، فخَانَ من خَانَ وادَّخَرَ من ادَّخَر، فرُفعتِ المائدةُ، فشَقَّ ذلك على كثيرٍ من الناسِ، وتكلَّمَ منافقُوهم في ذلك وشكَّكُوا الناسَ بعيسى عليه السلامُ، فقال الله: «يا عيسى إني ءاخِذٌ بشَرْطي» أي سَأُعَذِّبُ من كفَرَ، فلما قامَ الذين كفرُوا من نومِهم في اليومِ التالي وكانوا ثلاثةً وثلاثينَ شخصًا، تحَوَّلوا إلى خنازيرَ بشعةٍ، وصارُوا يأكلونَ الأوساخَ من حُفَرِ الأقذارِ، بعدما كانوا يأكلُون الطعامَ الطيبَ وينامون على الفراشِ الليّنِ، فلما رأى الناسُ ذلك اجتمعوا إلى عيسى عليه السلامُ يَبْكُون، وجاء هؤلاء الخنازيرُ فَطَأْطَؤُوا رؤوسهم وصاروا يبكُون ودموعهم تجري، فعرفَهم سيدُنا عيسى وصارَ يقولُ لكل منهم: «ألست فلانًا؟» فيُومِئ برأسِه ولا يستطيعُ الكلامَ، وبقوا كذلك عدةَ أيامٍ ثم دعا سيدُنا عيسى ربَّه عزَّ وجلَّ أن يقبِضَ أرواحَهم، فأصبحُوا لا يُدْرَى أينَ ذَهَبُوا، هل الأرضُ ابتلعَتْهُم، أم غيرُ ذلك؟

وتحدَّثَ الناسُ عن هذه المعجزةِ العظيمة، فآمَنَ خلقٌ كثيرٌ، وازدادَ المؤمنونَ يقينًا وثباتًا في إيمانهم.

من أقوال عيسى عليه السلام وحكمه

روي أن عيسى ابن مريم عليهما السلام وقف هو وأصحابه على قبر فجعل أصحابه يذكرون القبر وضيقه فقال لهم عليه السلام: «قد كنتم في ما هو أضيق منه في أرحام أمهاتكم، فإذا أحب الله أن يوسع وسَّع» اهـ.

وورد أن عيسى عليه السلام قال في أتباع الرسول ﷺ: «علماء حلماء بررة أتقياء كأنهم من الفقه أنبياء» اهـ.

وورد أن عيسى المسيح عليه السلام قال يومًا لتلاميذه الحواريين: «كلوا خبز الشعير واشربوا الماء القراح واخرجوا من الدنيا سالمين ءامنين، بحق ما أقول لكم إنّ حلاوة الدنيا مرارة الآخرة وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة» اهـ.

وورد أنه قيل له: «من أشدُّ الناس فتنة؟ فقال: زلة العالِم، فإن العالم إذا زلّ يزل بزلته عالم كثير» اهـ.

وروي أنه عليه السلام قام في بني اسرائيل فقال: «يا معشر الحواريين، لا تحدثوا بالحِكم غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم» اهـ.

ومن حكمه عليه السلام أنه قال: «لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئًا، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها» اهـ.

وروي عنه عليه السلام في ذم علماء السوء الذين لا يعملون بما يعلمون: «يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم، قولكم شفاء وعملكم داء، مثلكم مثل شجرة الدِّفلى نبت مر قاتل تعجب من رءاها وتقتل من أكلها» اهـ.

وروي عنه أنه قال: «طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته» اهـ.

ذكرُ حكايةٍ طيّبة حصلت لسيدنا عيسى مع الحواريّينَ

عيسى عليه السّلامُ كان معهُ اثنا عشر من المؤمنين الأقوياء، وممّا يُروى عنهُ من الحكايات الطّيّبة أنّهُ كان ذات يوم سائرًا مع هؤلاء الجماعة الحواريّين فأتوا على جيفة كلبٍ أنتنت فهؤلاء الذين معهُ أخذوا بآنافهم حتى اجتازوا الكلب، أمّا سيدُنا عيسى فلم يفعل فقالوا بعد أن تجاوزوا هذه الجيفة ما أشدّ نُتن هذا الكلب فقال عيسى ما أشدّ بياض أسنانه فقالوا لهُ يا نبيّ الله كيف تقولُ هذا فقال: أريدُ أن لا أُعوّد لساني الذّمّ، يعني الكلام القبيح الذي لا خير فيه أريدُ أن أُعوّد لساني تجنُّبهُ، حفظُ اللّسان مطلوبٌ، هذا سيدُنا عيسى عليه السّلامُ علمهم بهذا حفظ اللّسان.

قصة سيدنا عيسى وجماعته لمّا مَرُّوا بقبر

مرة أتى سيدنا عيسى عليه السلام وجماعتُهُ المؤمنون إلى قبرٍ فقالوا، جماعتُه، قالوا ما أضيق هذا القبر، فقال لهُم «ليس الأمرُ كما ترون بحسب الظّاهر إنّ للقبر لشأنًا» معناه للقبر حالات خفيّة على الناس الذين على وجه الأرض، هذا القبرُ الذي ترونهُ مساحةً قصيرةً ضيّقةً الله تبارك وتعالى يجعلُه واسعًا على من شاء من عباده المؤمنين يتنعمون فيه.

سيرته عليه السلام وزهده وورعه وشيء من أوصافه ولماذا سُمّي بالمسيح

قال تعالى ﴿مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة المائدة].

كان نبيُّ الله عيسى عليه الصلاة والسلام جميل الشكل والصوت ربعة أي ليس طويلا ولا قصيرًا، ءادم اللون أي ذا سمرة خفيفة، سبط الشعر أي شعره متسلسل ناعم، وكان من سيرته عليه السلام أنه كان زاهدًا لا يُبالي بنعيم الدنيا وملذاتها الفانية بل كان قلبه متعلقًا بالعمل للآخرة وبطاعة الله تعالى، وكان عليه السلام يلبس الشَّعر ويأكل من ورق الشجر من نحو الملوخية والهندباء من غير طبخ، وكان لا يدخر عنده شيئًا ولكن ينفقه على الفقراء والمساكين والمحتاجين، لا يأوي إلى منزل ولا أهل ولا مال، فهو عليه الصلاة والسلام لم يكن يتخذ منزلًا يأوي إليه وإنما يبيتُ وينام أينما يدركه المساء.

وكان عليه السلام ورعًا كثير البكاء من خشية الله تعالى، متوكلًا على مولاه، كثير ثقة القلب بخالقه ورازقه، فكان عليه السلام يتحرى الطعام الحلال، وقد قال بعضهم: إنه كان يأكل من غزل أمه مريم عليها السلام، وقد رُوي عنه أنه خرج يومًا على أصحابه وعليه جبة صوف وسروال صغير يستر عورته وكان حافيًا باكيًا شَعْثًا مصفر اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش وقال لأصحابه: السلام عليكم يا بني إسرائيل أنا الذي أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ولا عجب ولا فخر، ثم قال لهم: أتدرون أين بيتي؟ قالوا: أين بيتك؟ فقال: بيتي المساجد وطي الماء، وإدامي الجوع، وسراجي القمر بالليل، وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس، وريحاني بُقول الأرض، ولباسي الصوف، وشعاري خوف رب العزة، وجُلسائي الزّمنى والمساكين، أُصبح وليس لي شيء، وأمسي وليس لي شيء، وأنا

طيب النفس غير مكترث فمن أغنى مني وأربح؟

وقد كان عليه السلام شديد التوكل على الله تعالى. روى أبو داود في كتاب القدر بالإسناد عن طاوس قال: لقي عيسى ابن مريم إبليس فقال -إبليس-: أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك، فأوف بذروة هذا الجبل فتردى منه إلى أسفل فانظر هل تعيش أم لا؟ فقال عيسى: أما علمت أن الله تعالى قال لا يجربني عبدي فإني أفعل ما شئت.

وسُمّي نبيُّ الله عيسى عليه السلام بالمسيح لكثرة سياحته في الأرض ليعلّم الناس دين الله وشرعه ويدعوهم إلى عبادة الله وحده، وقيل: إنه سمي بالمسيح لأنه كان يمسح على المريض الأبرص والأعمى وغيرهما فيشفى بإذن الله تعالى ومشيئته.

بيان أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بشّر بالرسول محمد ﷺ

يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [سورة الصف].

نبي الله عيسى المسيح عليه السلام بشّر برسول ءاخر الزمان وهو سيدنا محمد ﷺ كما بشر به الأنبياء السابقون من قبله فذكروا صفاته كما ذكرت في التوراة والإنجيل وذلك ليعرفه بنو اسرائيل ويتابعوه، ولما كان نبيُّ الله عيسى ابن مريم عليهما السلام هو ءاخر أنبياء بني إسرائيل قام عليه السلام في بني إسرائيل خطيبًا فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم وأنها بعده في النبي العربي الأمّي خاتم الأنبياء وأفضلهم على الإطلاق وهو أحمد وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام.

يقول الله تبارك وتعالى في حقِ هؤلاء الذين اتّبعوا نبيه ورسوله محمدًا ﷺ وءامنوا به ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨﴾ [سورة الأعراف].

روى البيهقي في الدلائل وغيره عن الرسول ﷺ أنه قال: «**دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ابن مريم ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام**»، قوله: «**دعوة أبي إبراهيم**» ذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ [سورة البقرة].

فائدة: تقدم أنه من جملة وصايا عيسى المسيح عليه السلام لأتباعه أنه قال لهم: إنه يأتي بعدي نبي اسمُه أحمد فآمنوا به واتبعوه إذا ظهر، وكان ممن سمع وصية عيسى عليه السلام واحد من الجن المؤمنين، فهذا الجني المؤمن بلّغ خبر هذه الوصية لأربعة من أهل اليمن كانوا قد خرجوا من بلادهم ونزلوا بأرض في الجزيرة العربية، وذلك قبل أن يظهر اسمُ رسول الله محمد ﷺ في الدنيا ظهورًا تامًّا، وكانوا قد أدركهم المبيت بالبرية في ءاخر الليل فسمع أحدهم وهو الجعدُ ابنُ قيس المرادي صوتَ هاتفٍ – أي صوت جني من غير أن يرى شخصه – وهو يقول: [الطويل]

ألا أيُّها الرَّكب الـمُعرّسُ بلّغوا ... إذا ما وقفتم بالحطيم وزمزمَا
محـمـدًا المبـعـوث مـنـا تحيةً ... تُشَيّعه من حيثُ سـارَ ويمّمَا
وقـولـوا لـه إنـا لدينك شيعةٌ ... بذلك أوصانا المسيحُ ابنُ مريَمَا

فلما دخل الجعد بن قيس إلى مكة صار يبحث ويسأل عن النبي ﷺ حتى دُلَّ عليه، فلما اجتمع بالرسول ﷺ عرفه وءامن به.

ذكر مكيدة اليهود ورفع عيسى عليه السلام إلى السماء وبيان أنه لم يقتل ولم يصلب

قال الله تبارك وتعالى ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة ءال عمران].

استمر أكثر بني اسرائيل على كفرهم وضلالهم وعنادهم وءامن بعيسى عليه السلام القليل، وكان منهم طائفة صالحة كانوا له أنصارًا وأعوانًا قاموا بمتابعته ونصرته وإعانته على نشر دين الإسلام الحق الذي أرسله الله تبارك وتعالى ليدعو إليه، ولما أخذت دعوته تنتشر ويكثر أتباعه ومناصروه حسده اليهود وتآمروا عليه وأخذوا يدبرون مكيدة لقتله والتخلص منه، فوشوا به إلى بعض ملوك الزمان وعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله تبارك وتعالى من مكيدتهم ومكرهم ورفعه إلى السماء من بين أظهرهم وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى عليه السلام وهم في ذلك غالطون، وسلم لهم كثير من النصارى في ما ادعوه وكلا الفريقين في ذلك مخطئون، قال الله تبارك وتعالى في الرد على اليهود الذين زعموا أنهم قتلوا نبي الله عيسى عليه السلام ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [سورة النساء].

وورد في قصة رفع نبي الله عيسى عليه السلام إلى السماء أنه قبل أن يدخل اليهود على المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كان عليه السلام مع اثني عشر من أصحابه وتلاميذه في بيت فقال لهم: إن منكم من يكفر بي بعد أن ءامن، ثم قال لهم: أيكم يُلقى عليه شبهي ويُقتل مكاني فيكون رفيقي في الجنة؟ فقام شاب

أحدثهم سنًّا فقال: أنا، قال: اجلس، ثم أعاد عيسى عليه السلام مقالته فعاد الشاب وقال: أنا، ثم أعاد عيسى عليه السلام مقالته فعاد الشاب الثالثة، فقال له عليه السلام: أنت هو، وألقى الله سبحانه وتعالى شبه عيسى عليه السلام على هذا الشاب، فدخل اليهود البيت وأخذوا الشاب فقتل وصلب بعد أن رفع عيسى عليه السلام من روزنة في البيت - وهي نافذة في أعلى الحائط - إلى السماء وأهل البيت ينظرون. ثم افترقوا فرقًا، فرقة قالت: هو الله، وفرقة قالت: هو ابن الله، وفرقة قالت: هو عبد الله ورسوله وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الفرقتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ.

قال الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة ءال عمران]. ومعنى قول الله تعالى ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ أي قابضك إلى السماء وأنت حيٌّ يقظان، ويجوز أن يفسر بأن هذا من باب المقدم والمؤخر فكأن السياق إني رافعك ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك أي مميتك، فعلى هذا التفسير وهو تفسير ابن عباس يكون متوفيك معناه مميتك.

وقوله تعالى ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ أي جاعل من اتبعك على الإسلام والتوحيد وهم من بقي بعد رفعه إلى السماء على الإسلام ثم بعد انقراضهم أمة محمد لأن هؤلاء هم متبعو عيسى على ما جاء به من توحيد الله وسائر أصول العقيدة والأحكام التي اتفقت عليها شرائع الأنبياء فوق الكافرين من حيث المعنى والحكم فإن من معه الحق فهو فوق غيره، وفي هذه الآية دلالة على أن أمة محمد ءاخر الأمم المسلمة أتباع الأنبياء في الإسلام والتوحيد وأنهم يبقون إلى نهاية الدنيا ويكونون مع سيدنا عيسى بعد نزوله من السماء في ءاخر الزمان.

قِصَّةُ جُرَيْجِ الذي كانَ منْ أُمَّةِ سيّدنا عيسى عليهِ السلامُ

كانَ جُرَيْج من أمّةِ سيّدنا عيسى منَ الذينَ كانوا على دينِ المسيحِ، ويعملون بشريعتِهِ، يصلون صلاته عليه السَّلام ويصومونَ صيامَهُ، فهذا جُرَيْج، اعتزلَ الناسَ وتجرّد للعبادةِ، وأمه كانتْ تأتيهِ من وقتٍ إلى وقتٍ إلى الصّومعةِ التي هوَ اعتزلَ فيها لعبادةِ الله وكانَ وليًا حقيقيًّا اتبعَ المسيحَ عليهِ السَّلامُ اتباعًا كاملًا أدّى الواجباتِ واجتنبَ المحرماتِ بعدَ أنْ تعلَّمَ ما هوَ الواجبُ في شريعةِ عيسى وما هوَ الحرامُ وتمسَّكَ بالنوافِلِ وزادَ على الفرائضِ بأن تَجَرَّدَ للعبادةِ، اعتزلَ الناسَ خارجَ المدينةِ في مكان مرتفعٍ وبنَى صومعةً من طِيْنٍ، لأنَّ همَّهُ الآخرة والتجرُّد لعبادةِ الله فصار أهل البلد حتى ملكهم يعتقدون أنه صار تقيًا عابدًا من العباد الصالحين، ثمَّ حصل أن قالت امرأةٌ فاسدةٌ لبعضِ الفاسدينَ الفاسقينَ أَنا أَفْتِنُهُ فذهبت إليهِ وتَعَرَّضَتْ لَهُ، بحيث يراهَا مقابلَ بابِهِ، فلم يلتفتْ إليها، وما استطاعت أَنْ تَفْتِنَهُ، ثمَّ كانَ بالقربِ من ذلكَ المكانِ رجلٌ راع، فَواقعَها هذا الراعي فَحَمَلَتْ منهُ ثمَّ لما ظَهَرَ حَمْلُهَا قالت هذا من جُرَيْج، ولما تأكّدوا أنَّها حامِلٌ بأن وضعَت ذهبوا إليه وبأيديهِمُ الفؤوسُ ليهدِمُوا لهُ صومَعَتَهُ، قالوا هذا الذي كُنَّا نحنُ نعتقِدُ فيهِ أَنَّهُ وليٌّ يَفْجُرُ بهذِهِ المرأةِ، فأخذوه ووضعوا في عُنُقِهِ حَبْلًا وجَرُّوه وهدَموا صومعَتَه بالفؤوسِ ثمَّ قالَ لهم أمهلوني حتّى أصلّي ركعتين، - أُمَّةُ عيسى كانَ لهم وضوءٌ وصلاةٌ فيها ركوعٌ وسجودٌ كما نحنُ - فتوضأ وصلَّى ركعتين ثمَّ قالَ لهذا الغلامِ المولودِ الذي وَضَعَتْهُ هذِهِ المرأة البَغِي يا غلام من أبوكَ - أي من أبوك صورةً لأنّ ولد الزنا ينسب إلى أمه دون من كان من مائه - فقالَ أبي الرّاعي، أنطقَهُ الله بهذا فلمّا سَمِعُوا هذِهِ التَّبْرِئَةَ انكبُّوا عليهِ يُقَبِّـلونَهُ ويَتَمَسَّحُونَ بِهِ وقالوا لهُ نبني لكَ صومعتكَ من ذهبٍ، قَالَ لا أَعِيدُوهَا كما كانت من طينٍ، هذا من أمَّةِ سيّدنا عيسى عليهِ السَّلام وليٌّ من أولياءِ الله.

أَصْحَابُ الجَنَّةِ (أي البُسْتَان)

ذكر الله تعالى في القرءان الكريم في سورةِ القلمِ شيئًا من قصةِ أصحابِ الجنةِ أي البُستانِ الذينَ لم يُؤَدُّوا حقَّ الله تعالى فيه، فحرَمهُم منهُ عِقابًا على نيّتهمُ الخبيثةِ، فما تفاصِيلُ هذه القِصةِ؟

كانت «اليمنُ» مشهورةً بكَثْرَةِ بساتينِها وأراضِيها الخِصْبَةِ، وبالقُرْبِ من أهم مدُنِها «صنعاء» في ناحيةٍ اسمُها «ضَوْران» عاشَ رجلٌ صالحٌ معَ أولادِه عِيشَةً طيّبةً، حيثُ كانَ له أرضٌ عظيمةُ الاتساعِ، مُنوَّعَةُ الزروعِ، كثيرةُ الأشجارِ، وافرةُ الأثمارِ، فَهنا نخيلٌ، وهناكَ أعنابٌ، وهنالِك بُقُول، فغَدَت مُتعةً للناظرينَ، ونُزْهَةً للقاصدينَ، يأتونَها للراحَةِ والتمتُّعِ بمنظرِها الجميلِ.

وكان الرجلُ الصالحُ مسلمًا من أتباعِ سيدنا عيسى المسيحِ عليه السلامُ يشكرُ الله تعالى على ما أنعمَ عليه وأعطاهُ، وكان كلما حانَ وقتُ حصادِ الزروعِ دعا البُستانيَّ وأعوانَه، فيقطعونَ بالمَناجِل ما يقطَعونه، ويقطِفون الثِمارَ، ثم يَبعثُ بطلَبِ جماعاتِ الفقراءِ على ما عوّدَهُم عليه كلَّ عام، فلا يمنَعُهم منَ الدخولِ بل يُعطِيهم نصيبًا وافرًا، هذا يملأ أوعيتَه التي أتَى بها، وذاكَ يحمِلُ في ثيابهِ، ثم بعدَ ذلك ما أخطأَه المِنجَلُ فلم يقطَعه كانَ لهم، وكذلكَ ما سقَطَ من القمحِ بعد أن يُجمَعَ فوقَ البِساطِ، وما تركَه الحَاصِدُ، وما تناثَرَ بين أشجارِ النخيلِ بعدَ فَرْطِ ثمارِها، رِزقًا حلالًا طيبًا، وجَرَى على هذا كل عام.

لم يتحمَّل بعضُ أبناءِ الرجلِ الصالحِ رؤيةَ جُزءٍ من مالِ أبيهم مُوزَّعًا بينَ الفقراءِ، وبُستانِه مفتوحًا للمساكينِ والمحتاجينَ، وأنهم مِثْلُهم سَوَاءٌ، فقال واحدٌ منهم لوالدِه: «إنك بعطَائِك للفقراءِ، تَمنعُنا حقَنا، وتُضَيِّـقُ علينا في رِزقِنا»، وقال الابنُ الآخَرُ: «قد نَعودُ بعدَكَ فقراءَ نمدُّ الأيديَ للناسِ، نَشحَذُ منهم»، وهَمَّ الثالثُ بالكلام، فأسكَتَه الوالدُ وأدارَ عينَيْه على الجميع وقالَ: «ما أرَاكُم إلا مُخطئينَ في الوَهْمِ والتقديرِ، هذا المالُ مالُ الله مكّنني فيه، وأمرني أن أُخرِجَ

منه حقوقًا زكاةً للفقراءِ والمساكينِ، والمالُ بهذا الأمرِ يَزيدُ ويُبارَكُ فيه، وعلى هذا تَعَوَّدْتُ منذ كنت شابًا، وقد التزمتُ به رجُلًا كَهْلًا، فكيف بِي أن أتركَه اليومَ وأنا شيخٌ وموتي قريبٌ؟ ولم يمكثِ الرجلُ الصالحُ طويلًا، إذ أُصيبَ بمرضٍ وتُوفِيَ تاركًا أولادَه وبستانَهُ الواسعَ.

ومضتِ الأيامُ سريعةً، وحانَ وقتُ الحصادِ، وترقَّبَ الفقراءُ والمساكينُ حلولَه ليأتُوا ويأخذُوا نصيبَهم كما عوَّدَهُمُ الرجلُ الصالحُ كلَّ عامٍ.

واجتمعَ الأبناءُ البُخلاءُ يُعِدُّون للحَصادِ، فقال أحدُهم: «لن نُعطيَ بعد اليومِ من البستانِ شيئًا لفقيرٍ أو محُتاجٍ، ولن يعودَ مأوًى لقاصِدٍ أو ابنِ سبيلٍ فإننا إذا فعَلْنَا هذا، زادَ مالُنا وعَلا شأنُنا».

وقال أوسَطُهم وكانَ كأبيه طَيِّبًا يُحِبُّ عَمَلَ الخَيرِ: «إنكم تُقْدِمُونَ على أمرٍ تَظُنونَه أوفرَ لكُم، ولكنه يحوي الشرَّ، وسيقضي على بُستانِكم من جُذورِه، إنكم لو حَرَمْتُمُ الفقراءَ ولم تُعطُوا المساكينَ والمستحقِّينَ زكاةَ الزَّرعِ أخافُ عليكم عقابَ الله تعالى».

ولكنهم لم يَنصَاعُوا واتفقُوا في ما بينَهم سِرًّا أن يقومُوا أولَ الصبحِ قبلَ أن يستيقظَ الناسُ فيأتوا إلى بُستانهم ويَقطِفُوا ثمارَه ويحصُدُوا زَرْعَه ويقتَسمُوه في ما بينهم، فلا يبقَى شيءٌ للفقراء.

وكان الله تعالى عالمًا بما يَكيدُونَهُ وما اتفقوا عليه، فأرسَلَ سيدَنا جبريلَ عليه السلامُ ليلًا ببلاءٍ شديدٍ، فاقتُلِعَت نباتاتُهم واحترقَت شَجراتُهم، وجَفَّت أوراقُهم وأنهارُهُم، وأصبَحَ بُستانُهم أسودَ كالليلِ.

وطلعَ عليهمُ النهارُ وهم على مشَارِفِ بستانِهم يتسَاءَلُون: أهذا بستانُنا، وقد تَركْنَاه بالأمسِ مُورِقًا بأشجارِه، وافرًا بثمارِهِ؟ ما نظنُّ هذا بستانَنَا وإننا ضالونَ عنه.

قال أوسَطُهم: «بل هي جنتُكُم، حُرِمتم منها قبلَ أن يُحْرَمَ الفقيرُ منها، وجُوْزِيْتُم على بُخْلِكم وشُحِّكم». فأقبَلَ بعضهُم يلُوم البعضَ الآخرَ، فالأولُ

يقول: «أنت أشَرْتَ علينا بمنعِ المساكينِ»، ويقولُ الآخرُ: «بل أنت زيَّنْتَ لنا حِرمانَهم»، فيجيبهُ أحدُهم: «أنت خوَّفْتَنا الفقْرَ»، ويقول ءاخِرُهُم: «بل أنت الذي رغَّبْتَنا بجمعِ المالِ» ثم قالوا: «ربَنا إنَّا كنا طاغِينَ» أي عصَيْنَا ربنا بمنعِ الزكاةِ. وأدركَهُمُ الله تعالى برحمتِهِ عندما أظهَرُوا استعدادَهم للتوبةِ وقالوا: «إن أبدلَنا الله خيرًا منها سنصنَعُ كما صنَعَ والدُنا»، فدعَوُا الله وتضرَعُوا وتابُوا إليه فأبدَلَهم من ليلتِهم ما هو خيرٌ منها، فقد أمرَ جبريلَ عليه السلامُ أن يقتَلِعَ بستانَهم المحروقَ ويجعلَه في مكانٍ بعيدٍ وأن يأخُذَ من أرضِ الشامِ بستانًا عامِرًا ويجعَلَه مكانَ الأولِ، فكانتِ البركةُ فيه ظاهرةً إذ كان عنقودُ العنبِ فيه ضَخْمًا جِدًا، وعادُوا إلى ما كانَ عليه والِدُهم لا يمنعونَ فقيرًا ولا مسكينًا، بل يُطَهِّـرون أموالَهم وأنفسَهم بما يُرضِي الله عزَّ وجلَّ.

أصحاب الكهف

قال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الكهف].

كان أصحاب الكهف فتية مسلمين من أتباع عيسى ابن مريم ءامنوا بربهم كما وصفهم الله عز وجل في القرءان المجيد، والرقيم هو الكتاب الذي كان الفتية كتبوه في لوح بذكر خبرهم وقصصهم ثم جعلوه على باب الكهف الذي أووا إليه، أو كتبوه في لوح وجعلوه في صندوق خلّفوه عندهم، أما عدد الفتية فقيل سبعة وثامنهم كلبهم، وقيل: كان عددهم ثمانية وتاسعهم كلبهم، والله أعلم بعدتهم.

ذُكرتْ قصةُ أصحابِ الكهفِ في القرءانِ الكريمِ، وفيها عِبَرٌ وءاياتٌ وبراهينُ تدُلُّ على عظيمِ قدرةِ الله تعالى وحكمتِهِ في تدبيرِ مخلوقاتِهِ.

وتفاصيلُ القِصّةِ كما رُوِيَتْ أن مَلِكًا اسمُهُ «دُقْيانُوس» أمَرَ أهلَ مدينتِهِ «أُفسُوس» - في نواحي تركيا حاليًا - بعبادةِ الأصنامِ.

وذاتَ يومٍ زارَ المدينةَ أحدُ أصحابِ سيدِنا عيسى المسيحِ عليهِ السلامُ وهم المُسَمَّوْنَ «بالحَوَارِيّينَ» وكانَ مسلمًا داعيًا إلى دينِ الإسلامِ، فعَمِلَ في حَمّام يَغْتَسِلُ فيهِ الناسُ، ولما رَأَى صَاحِبُ الحَمّامِ بَرَكَةً عَظِيمةً مِن هذا العاملِ سلَّمَهُ شؤونَ العملِ كلَّها. فتعرَّفَ ذلك الحواريُّ إلى فِتيانٍ من المدينةِ فعلَّمهمُ التوحيدَ وتَنزيهَ الله تعالى عن الوَلدِ والشّكلِ و التحيّزِ في المكانِ وأنه لا يُشبه شيئًا ودعاهم إلى الإسلاَمِ فأسلَموا وءامَنوا بالله وطبّقُوا ما علّمهمْ إياهُ من التعاليمِ والأحكامِ.

اشتَهَرَ أمرُ هؤلاءِ الفِتيةِ المسلمينَ الذين التزمُوا الإسلامَ وعبادةَ الله وحدَهُ، فرُفِعَ أمرُهُم إلى المَلِكِ «دُقيانوس» وقيلَ لهُ: «إنهم قد فَارَقوا دينَكَ واستَخفُّوا بما تعبُدُ من أصنامٍ وكَفَروا بها»، فأتى بهِمُ المَلِكُ إلى مجلسِهِ وأمرَهُمْ بتركِ الإسلام، وهدَّدهمْ بالقتلِ إن لم يفعلوا ذلكَ، ثم زعمَ أنهم ما زالوا فِتيانًا صِغارًا لا عُقولَ لهَمْ وقالَ إنهُ لن يقتلَهُمْ فورًا، بل سيعطيهِمْ مُهْلَةً للتفكيرِ قبلَ تَنفيذِ تهديدِهِ، وأرسلَهُمْ إلى بيوتِهِمْ.

ثم إنَّ الملكَ «دُقيانوس» سافرَ خلالَ هذهِ المدّة، فاغتنمَ الفِتيةُ الفُرصةَ وتَشاوروا في الهروبِ بدينِهِم، فقال أحدُهُم: «إني أعرفُ كَهْفًا في ذاك الجبلِ كانَ أبي يُدخِلُ فيه غنَمًا، فلْنذهبْ ولْنَخْتَفِ فيهِ حتى يَفتحَ الله لنا»، واستقرَّ رأيُهُم على ذلكَ.

فَخَرجُوا يَلْعَبونَ بالكُرَةِ وهم يُدَحْرِجُونَها أمامَهُم لِئَلا يَشعُرَ الناسُ بهم حتى هَرَبوا وكانَ عددُهُم سبعةً وأسماؤُهُم: «مَكْسَلْمينَ»، «أمليخا»، «مَرطونِس»، «يَنْيونِس»، «سَارَمونِس»، «دَوَانَوَانِس» و«كَشْفيطِط»، وتَبعَهم كلبٌ صارَ ينبحُ

عليهم فطردُوه فعادَ، فطردوه مرارًا ورَمَوْهُ بالحجارةِ مخافةَ أن ينتبهَ الكفارُ إلى مكانهم بسَماعِهِمْ نبَاحَهُ، فرفعَ الكلبُ يديهِ إلى السماءِ كالداعي وأنطقهُ اللهُ تعالى فقالَ: «يا قومُ، لِمَ تطردونني، لِمَ ترجُمونني، لِمَ تضْرِبونني، لا تخافُوا مني فوالله إنني لا أكْفُرُ بالله»، وكان اسمُ الكلبِ «قِطمير»، فاستيقنَ الفِتيةُ أن الله تعالى سَيمنعُ الأذَى عنهم، واشتغلوا بالدعاءِ والالتجاءِ إليهِ سبحانَه ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝﴾ وما زالوا في سَيْرِهِم حتى وصلوا إلى الكهفِ، وهناك وجدوا ثِمارًا فأكَلوها، وماءً فشرِبوهُ، ثم اسْتَلْقَوْا قليلًا لتَرْتَاحَ أقدامُهم، وما هي إلا لحظاتٌ حتى أحسُّوا بالنُّعاسِ يُداعبُ أجفانَهم فتثاقلتْ رُؤوسُهم وناموا على الأرضِ نومًا عميقًا، من دونِ أن يُغْمِضوا أَعْيُنَهُمْ.

وتَعاقبَ ليلٌ إثْرَ نهارٍ، ومضى عامٌ وراءَ عامٍ، والفِتْيَةُ راقدونَ، والنومُ مضروبٌ على ءَاذانِهم، أي مُنعوا من أنْ يَسْمَعوا شيئًا، لأن النائمَ إذا سَمِعَ استيقظَ، لا تُزْعِجُهُم زَمْجَرَةُ الرياحِ، ولا يوقظُهُمْ قصفُ الرَّعْدِ، تطلعُ الشمسُ فلا تُصيبُهُم بحرِّها كَرامةً لهم، فإذا طَلَعَتْ مالتْ عن يمينِ كهفِهم وإذا غربتْ تمرُّ عن شِمالِهِ فلا تُصيبهم في ابتداءِ النهارِ ولا في ءاخرِهِ، ولا تعطيهمْ إلا اليسيرَ من شُعَاعِها، ولا تُغيِّر ألوانَهُمْ ولا تُبلي ثيابَهُمْ.

وكانوا لَوْ نَظَرَ إليهم ناظرٌ لحَسِبَهُمْ مستيقظينَ وهم رُقودٌ، لأن أعينَهُم مفتوحةٌ لئلا تَفسُدَ بطولِ الغَمْضِ ولأنها إذا بقيتْ ظاهرةً للهواءِ كان أنسبَ لها.

وكانوا كذلك يُقلَّبونَ يمينًا وشِمالًا مرتين في العامِ، وذلك لئلا تأكُلَ الأرضُ لحومَهُم، وقيلَ إن مَلَكًا منَ الملائكةِ الكرامِ كانَ موكَلًا بتقليبِهِم.

وكانوا لو نظرَ إليهمْ شخصٌ لهربَ ومُلِئَ رُعْبًا منهُمْ لما يغشاهم من الهيبةِ ويحف بهم من الرعب، لِوَحْشَةِ مكانِهِم، وكانَ الناسُ محجوبينَ عنهُم فقد حماهُم الله من أن يطَّلع عليهِم الناسُ فلا يَجسُرُ أحدٌ منهم على الدُّنُوِّ إليهِمْ.

ولما مضتْ ثلاثُمائةٍ وتسعٌ منَ السنواتِ منذُ نومِهِمْ في الكهْفِ، بعثَهُمُ الله تعالى

من نومِهِم وهُمْ لا يكادُونَ يُمْسِكُونَ نفوسَهُمْ من الجوعِ وتَسَاءَلُوا في ما بَيْنَهُم: «كمْ لَبِثْنَا؟» فقالَ بعضُهُم: «لَبِثْنَا يومًا»، وقال أحدُهُم: «نحنُ رَقَدْنا في الصباحِ وهذهِ الشمسُ تُقَارِبُ الغروبَ»، وقال الرابعُ: «دَعُونا من تَسَاؤُلِكُمْ، فالله أعلَمُ بما لَبِثْتُمْ، ولكنْ فَلْنَبْعَثْ واحدًا منا ولْنُعْطِهِ مِنْ دَرَاهِمِنا لِيَجْلِبَ لنا طَعَامًا، وَلْيَكُنْ حَذِرًا ذَكِيًّا، حتى لا يَعْرِفَهُ أَحَدٌ، فَيَلْحَقَ بهِ ويَصِلَ إلَيْنَا، فَيُخْبِرَ الملكَ «دُقيانوس» وجماعتَه فيعلموا بمكانِنا ويُعَذبونا بأنواعِ العذابِ أو يَفْتِنونا عن دِينِنا».

وكان «دُقيانوس» مَلِكُ تلكَ المدينةِ قد ماتَ وَتولَّى مُلْكَ المدينةِ رجلٌ مسلمٌ صالحٌ، وفي زمانِهِ اختلفَ أهلُ بلدِهِ في الحشرِ وبَعْثِ الأجسادِ من القبورِ، فشكَّ في ذلك بعضُ الناسِ واستبعدُوه وقالوا: «إنما تُحشرُ الأرواحُ فقطْ وأما الأجسادُ فيأكُلُها الترابُ» ولا تعودُ، وقال بعضُهُم: «بل تُبعثُ الروحُ والجسدُ جميعًا»، وقولهم هذا هو الحق فاغتمَّ الملِكُ لهذا وكادتْ أنْ تَحْصُلَ فِتْنَةٌ، فتَضَرَّعَ إلى الله تعالى أن يُسهِّل الحُجَّةَ والبيانَ لإظهارِ الحقِ، وفي هذا الوقتِ دخلَ إلى مدينةِ «أُفسوس» واحدٌ من أصحابِ الكهفِ اسمُهُ «أمليخا» لجلبِ الطعامِ، وكان خائفًا حَذِرًا، ودُهِشَ من تغيُّرِ المعالمِ وشكلِ الأبنيةِ، فهذه الناحيةُ لم تكنْ إلا مساحاتٍ لرعْيِ الغنمِ كيف صارتْ قُصورًا عاليةً، وهناكَ قصورٌ صارتْ خرائبَ مدمَّرةً، وتلك وجوهٌ لم يعرفْها، وصُوَرٌ لم يألفْها، وتحيّرتْ نَظَرَاتُهُ، وكَثُرَتْ لَفَتَاتُهُ، وظهر الاضطرابُ في مِشْيَتِه، فالتفتَ إليهِ أحدُهم قائلًا: «أغريبٌ أنتَ عن هذا البلدِ؟ وعمَّ تبحثُ؟» قال: «لستُ غريبًا، ولكني أبحثُ عن طعامٍ أَشْتَرِيهِ، فلا أرى مكانَ بيعِهِ الذي كنتُ أعرفُه»، فمضى به إلى بائعِ طعامٍ، فلما أَخرجَ دراهِمَهُ وأعطاها للتاجرِ، استغربَ منظرَها إذ كانَ عليها صُورةُ الملكِ «دُقيانوس» الذي ماتَ منذ ثلاثمائةِ سنةٍ وأكثرَ، فَحَسِبَ أنهُ عثرَ على كَنْزٍ، وأنَّ معه أموالا كثيرةً ودراهمَ وفيرةً، فاجتمعَ الناسُ مِنْ حَوْلِهِ وأخذوه إلى الملكِ الصالحِ.

ووصلَ الخبر إلى الملكِ الصالحِ، فكان يَنتظرُ بفارغ الصبرِ رؤيةَ هذا الشخصِ الذي سمعَ عنه من أجْدَادِهِ، فسألَهُ عن خَبَرِهِ، فحَكَى لهُ «أمليخا» ما جَرَى معهُ

ومع أَصْحَابِهِ. فَسُرَّ الملكُ بذلكَ وقال لقومه: «لعلَّ الله قد بعثَ لكم ءايةً لِتُبَيِّنَ ما اختلفْتُمْ فيهِ».

وسارَ الملِكُ مع أهلِ المدينةِ يرافقُهُم «أمليخا»، فلما دَنَوْا من الكهفِ قالَ لهم: «أنا أدخلُ عليهِمْ لِئَلا يفزَعُوا»، فدخلَ عليهِمْ فأعلمَهُم الأمْرَ وطَمْأَنَهُمْ أنَّ الملكَ «دُقيانوس» ماتَ وأَنَّ الملِكَ الحاليَّ مسلمٌ صالحٌ، فسُرُّوا بذلكَ وخرجُوا إلى المَلِكِ وحَيَّوْهُ وحيَّاهُمْ ثم رَجَعُوا إلى كَهْفِهِمْ، فلما رءاهُمْ مَنْ شَكَّ في بَعْثِ الأجسادِ تراجعَ واعْتَقَدَ الصوابَ وهو أنَّ الحَشْرَ يكونُ بالروحِ والجسدِ معًا.

وحينئذٍ أعْمَى الله تعالى أبصار الناسِ عن أَثَرِ الكهفِ وحَجَبَهُ عنهم فقالَ بعضُهُمْ: «ابنُوا بُنْيانًا ليكونَ مَعْلَمًا لهمْ ودليلًا على مَكَانِهِم».

وقال ءاخرون: «ابنُوا مَسْجِدًا للتبركِ بهم».

وهكذا كانتْ قِصةُ أصحابِ الكهفِ تَذْكِرَةً للناسِ وعِبْرَةً وموعظةً ودليلًا على قُدرتِهِ العظيمةِ وأنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

بيان نزول عيسى المسيح عليه السلام من السماء قبل يوم القيامة وأنه من علامات الساعة

ليعلم أنه ورد في الشريعة أن من علامات قرب قيام الساعة نزول عيسى عليه السلام من السماء إلى الأرض، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ **«أنه قرأ قوله تعالى** ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [سورة الزخرف] **فقال: نزول عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة»** اهـ.

وعن أبي صخر أن سعيدًا المقبري أخبره أنه سمع أبا هريرة يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«والذي نفس أبي القاسم بيده لينزلن عيسى ابن مريم إمامًا مقسطًا وحكمًا عادلًا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليصلحن ذات البين وليذهبن الشحناء وليعرضنّ عليه المال فلا يقبله ثم لئن قام على قبري فقال يا**

محمد لأجبته»[1] اهـ.

فأحاديث نزوله عليه السلام من السماء مشهورة قريبة من التواتر، وقد ثبت عن النبي أن عيسى عليه السلام عندما ينزل من السماء ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، ثم يعيش في الأرض أربعين سنة يحكم خلالها بشريعة القرءان شريعة النبي محمد ﷺ، ويعمّ بعد نزول عيسى عليه السلام الأرض الإسلام والأمن والسلام ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب، ويكسر عليه السلام عند نزوله الصليب ويقتل الخنزير في بقاع الأرض، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة خيرًا من الدنيا وما فيها»** اهـ. رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وقد ورد أنه عليه السلام يسلك فج الرَّوحاء حاجًّا أو معتمرًا ويقصد قبر النبي فيسلم على الرسول فيرد الرسول عليه السلام، ويقيم في الأرض حاكمًا أربعين سنة ثم يموت فيدفن في الحجرة النبوية قرب قبر النبي ﷺ وصاحبيه.

فقد روى الحاكم في المستدرك أن النبي ﷺ قال: **«ليهبطنَّ عيسى ابن مريم حكمًا مقسطًا وليسلكن فجًّا حاجًّا أو معتمرًا وليأتينّ قبري حتى يسلم عليَّ ولأردنَّ عليه»** اهـ.

قال تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [سورة النساء/ ١٥٩] وقال تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة الزخرف/ ٦١].

---

(١) رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده (٦/ ١٠٠).

الحكمة من نزول المسيح من السماء

قال العلماء: والحكمة من نزول عيسى دون غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من وجوه:

الأول: الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، فيبين الله تعالى كذبهم، وأنه هو الذي يقتلهم.

الثاني: نزوله عليه السلام لدنو أجله، ليدفن في الأرض، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غير التراب.

الثالث: أنه عليه السلام دعا الله تعالى لما رأى صفة محمد وأمته أن يجعله منهم، فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حتى ينزل في ءاخر الزمان، ويجدد أمر الإسلام، فيوافق نزوله خروج الدجال فيقتله عليه السلام.

الرابع: تكذيب النصارى وإظهار زيفهم في دعواهم الأباطيل وقتله عليه السلام لهم.

الخامس: أن خصوصيته بالأمور المذكورة إنما كانت لقول النبي ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ليس بيني وبينه نبي»، ورسول الله أخص الناس به وأقربهم إليه، لأن عيسى عليه السلام بشّر بأن رسول الله ﷺ يأتي من بعده، ودعا الخلق إلى تصديقه واتباعه.

أربع ءايات من كتاب الله تعالى في نزول عيسى عليه السلام

١- ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٤٦) ﴾ [سورة ءال عمران].

٢- ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ [سورة المائدة/ ١١٠].

٣- ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) ﴾ [سورة النساء].

٤- ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) ﴾ [سورة الزخرف].

ذكر بعض الأحاديث التي وردت في نزوله من السماء عليه السلام

- عن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الحرب ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها**» ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة النساء] رواه البخاري ومسلم.

وفي لفظ لمسلم من رواية عطاء: «**ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد**».

ورواه أبو داود وابن ماجه وأحمد في مسنده بإسناد صحيح كما قاله الحافظ ابن حجر في فتح الباري.

وفي رواية أبي داود وأحمد، واللفظ لأحمد: «**الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجلًا مربوعًا، إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصران كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام فيهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال وتقع الأمنة**» اهـ. الأمنة ها هنا الأمن كقوله تعالى ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ يريد أن الأرض تمتلئ بالأمن فلا يخاف أحد من الناس والحيوان...[1] على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمار مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه.

---

(١) النهاية في غريب الحديث (١/ ١٦٦).

ورواه أحمد بطريق ءاخر ولفظه: «**يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم**». وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن مردويه وفي لفظه: «وتكون السجدة الواحدة لله رب العالمين، واقرءوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة النساء] موت عيسى ابن مريم، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات».

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺقال: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم**» رواه البخاري ومسلم، وفي لفظة لمسلم: «**فأمكم**»، وفي لفظة أخرى: «**فأمكم منكم**».

وأخرجه أحمد في مسنده ولفظه: «**كيف بكم إذا نزل**» الحديث. وذكره البيهقي في كتاب الأسماء والصفات وعزاه للبخاري ومسلم ولفظه: «**إذا نزل ابن مريم من السماء فيكم وإمامكم منكم**».

- عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺيقول: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة - قال - فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم: تعال صل لنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة**» رواه مسلم وأحمد في مسنده وفي هذا دليل على أن عيسى عليه السلام ينزل عاملًا بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام ومتبعًا لها وبعد تلك المرة عيسى هو الذي يصلي بهم إمامًا.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «**والذي نفسي بيده لَـيُهِلَّن ابن مريم بفج الروحاء حاجًا أو معتمرًا أو لَـيُثَنِّـينهما**» رواه مسلم.

- قال النووي في شرح مسلم هو بفتح الياء في أوله معناه يقرن بينهما.

وأخرجه أحمد في مسنده ولفظه: «**ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطي المال حتى لا يقبل ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما**» وتلا أبو هريرة رضي الله عنه ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ

﴿ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ فزعم حنظلة أن أبا هريرة قال: يؤمن به قبل موت عيسى فلا أدري هذا كلّه حديث النبي ﷺ أو شيء قاله أبو هريرة.

وأخرجه الحاكم وصححه كما في الدر المنثور ولفظه: «**ليهبطن ابن مريم حكمًا عدلًا وإمامًا مقسطًا وليسلكنّ فجًا حاجًا أو معتمرًا وليأتينّ قبري حتى يسلمَ عليَّ ولأردنَّ عليه**» يقول أبو هريرة: أي بني أخي إن رأيتموه فقولوا أبو هريرة يقرئك السلام.

- عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: «ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل فانصرفنا من عند رسول الله ﷺثم رحنا إليه، فعرف ذلك فينا، فقال: **ما شأنكم**؟ فقلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: **غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط، عينه طافئة، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يمينًا وعاث شمالًا، يا عباد الله فاثبتوا.**

قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: **أربعون يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم.**

قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: **لا، اقدروا له قدره**. قلنا: يا رسول الله: وما إسراعه في الأرض؟ قال: **كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرًا، وأسبغه ضروعًا، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف**

عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخَرِبة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلًا ممتلئًا شبابًا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رميةَ الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسِه إلا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله.

ثم يأتي عيسى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك، إذ أوحى الله إلى عيسى عليه السلام أني قد أخرجت عبادًا لي لا يَدَان لأحد بقتالهم، فحرّز عبادي إلى الطور.

ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب يَنسِلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر ءاخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء.

ويحصر نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله تعالى، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فَرْسَى، كموت نفس واحدة.

ثم يهبط نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زَهَمُهم ونَتْنُهم، فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرًا لا يَكُنُّ منه بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقة.

ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقِحْفِها، ويبارك في الـرِّسْل، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي

الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللِّـقْحَة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس.

فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة فتأخذهم تحت ءاباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة» رواه مسلم - واللفظ له - وأبو داود، ولفظه: «ثم ينزل عيسى ابن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق» الحديث. والترمذي وابن ماجه وأحمد في مسنده والحاكم في المستدرك، وعزاه في كنز العمال إلى ابن عساكر، وفي لفظه: «انهبط عيسى ابن مريم».

- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين لا أدري أربعين يومًا أو أربعين شهرًا أو أربعين عامًا فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة» الحديث. رواه مسلم.
- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تَصَافُّوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سَبَوْا مِنَّا نُقاتِلْهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبدًا، فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوُّون الصفوف إذ أُقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم فأمَّهم، فإذا رءاه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى

يهلك، ولكن يقتله الله بيده[1]، فيريهم دمه في حربته» أخرجه مسلم.

- عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: «**اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر ءايات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاث خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وءاخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم**» أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

- عن ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله عن النبي ﷺ قال: «**عصابتان من أمتي أَحْرَزَهُما الله تعالى من النار، عصابة تغزو الهند، وعصابة تكون مع عيسى ابن مريم عليه السلام**» أخرجه النسائي في السنن وأحمد في مسنده والضياء في المختارة كما عزاه إليه في كنز العمال، وعزاه في مجمع الزوائد إلى الطبراني في الأوسط، وهذا الحديث صحيح على شرط النسائي.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ليس بيني وبينه نبي - يعني عيسى - وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، فيصلي عليه المسلمون**» رواه أبو داود واللفظ له وابن أبي شيبة وأحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه وابن جرير كما في الدر المنثور وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري.

---

(١) أي بيد المسيح عليه الصلاة والسلام، فهو الذي يقتل الدجال.

رفع عيسى إلى السماء ونزوله بما ورد من الآثار عن الصحابة

ورد نزول عيسى عليه السلام عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة، وحذيفة ابن أسيد، والنواس بن سمعان، وعبد الله بن عمرو، وجابر بن عبد الله، ومجمع ابن جارية، وأبي أمامة، وعثمان بن أبي العاص، وواثلة بن الأسقع، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن مغفل، وعائشة، وسمرة بن جندب، وأنس وأبي سعيد الخدري، وعمران بن حصين، وابن عباس، وأوس بن أوس وثوبان، وعبد الرحمـٰن بن سمرة، ونافع بن كيسان الثقفي، وكيسان بن عبد الله ابن طارق، ونافع بن عتبة، وأبي برزة، وعمرو بن عوف، وبعض الصحابة، وأبي الدرداء، ومن مرسل حبير بن نفير الحضرمي، والحسن، وعروة بن رويم من التابعين، وهذا غير الموقوفات والمقطوعات وهي في هذا الباب لها حكم الرفع كما تقرر في علوم الحديث.

ءاثار الصحابة والتابعين

- عن عبد الله بن عباس[1] رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة النساء] قال: خروج عيسى ابن مريم.
- أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴿١٥٩﴾﴾ قال: قبل موت عيسى.
- أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴿١٥٩﴾﴾ قال: يعني أنه سيدرك أناس من أهل الكتاب حين يُبعث عيسى، فيؤمنون به.

---

(١) قال السيوطي في الدر المنثور أخرجه الفريابي وعبد بن حميد والحاكم وصححه.

- أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن شهر بن حوشب عن محمد بن علي بن أبي طالب وهو ابن الحنفية رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴿١٥٩﴾﴾ قال: ليس من أهل الكتاب أحد إلا أتته الملائكة يضربون وجهه ودبره، ثم يقال: يا عدو الله إن عيسى روح الله وكلمته، كذبت على الله وزعمت أنه الله. إن عيسى لم يمت، وإنه رفع إلى السماء، وهو نازل قبل أن تقوم الساعة، فلا يبقى يهودي ولا نصراني إلا ءامن به.

- عن شهر بن حوشب رحمه الله تعالى قال: قال لي الحجاج: يا شهر، ءاية من كتاب الله ما قرأتها إلا اعترض في نفسي منها شيء، قال الله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴿١٥٩﴾﴾ وإني أُوتَى بالأسارى فأضرب أعناقهم ولا أسمعهم يقولون شيئًا؟ فقلت: رفعت إليك على غير وجهها، إن النصراني إذا خرجت روحه ضربته الملائكة من قبله ومن دبره وقالوا: أي خبيث إن المسيح الذي زعمت أنه الله أو ثالث ثلاثة عبد الله وروحه وكلمته، فيؤمن به حين لا ينفعه الإيمان.

وإن اليهودي إذا خرجت نفسه ضربته الملائكة من قبله ومن دبره وقالوا: أي خبيث إن المسيح الذي زعمت أنك قتلته عبد الله وروحه، فيؤمن به حين لا ينفعه الإيمان.

فإذا كان عند نزول عيسى ءامنت به أحياؤهم كما ءامنت به موتاهم، فقال: من أين أخذتها، فقلت: من محمد بن علي، قال: أخذتها من معدنها.

قال شهر: وايمُ الله ما حدثنيه إلا أم سلمة، ولكني أحببت أن أغيظه.

- وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴿١٥٩﴾﴾ قال: إذا نزل ءامنت به الأديان كلها ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أنه قد بلغ رسالة ربه وأقرّ على نفسه بالعبودية.

- وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۝١٥٩﴾ قال: إذا نزل عيسى عليه السلام فقتل الدجال لم يبق يهودي في الأرض إلا ءامن به.
- عن أبي مالك في قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۝١٥٩﴾ قال: ذلك عند نزول عيسى ابن مريم لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ءامن به.
- وأخرج ابن جرير عن الحسن البصري في قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۝١٥٩﴾ قال: قبل موت عيسى، والله إنه الآن حي عند الله، ولكن إذا نزل ءامنوا به أجمعون.
- وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أيضًا أن رجلًا سأله عن قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۝١٥٩﴾ قال: قبل موت عيسى، إن الله رفع إليه عيسى، وهو باعثه قبل يوم القيامة مقامًا يؤمن به البر والفاجر.
- أخرج عبد بن حميد والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلًا من الحواريين، فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن ءامن بي.

ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في الجنة؟ فقام شاب من أحدثهم سنًا، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: اجلس، ثم أعاد فقام الشاب فقال: أنا، فقال: أنت ذاك، فأُلقي عليه شبه عيسى، ورُفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء.

وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن ءامن به، وافترقوا ثلاث فرق.

فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، فهؤلاء اليعقوبية.

وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء النسطورية.

وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله، وهؤلاء المسلمون.

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ فأنزل الله ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴿١٥٩﴾﴾ يعني الطائفة التي ءامنت في زمن عيسى ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الصف] يعني التي كفرت في زمن عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴿١٤﴾﴾ في زمن عيسى بإظهار دين محمد دينهم على دين الكافرين.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي المنذر عن قتادة قوله تعالى ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [سورة النساء]. قال: أولئك أعداء الله اليهود افتخروا بقتل عيسى، وزعموا أنهم قتلوه وصلبوه، وذكر لنا أنه قال لأصحابه: أيكم يقذف عليه شبهي فإنه مقتول؟ قال رجل من أصحابه: أنا يا نبي الله، فقتل ذلك الرجل، ومنع الله نبيه ورفعه إليه أي إلى محل كرامته وهو السماء فأما الله فموجود بلا جهة ولا مكان.

- وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾ قال: صلبوا رجلًا غير عيسى، شبهوه بعيسى يحسبونه إياه، ورفع الله إليه عيسى حيًا.
- وأخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد من طريق ثابت البناني عن أبي رافع قال: رفع عيسى ابن مريم وعليه مدرعة وخُفًّا راعٍ.
- أخرج أحمد في الزهد وأبو النعيم وابن عساكر من طريق ثابت البناني عن أبي العالية قال: ما ترك عيسى ابن مريم حين رفع إلا مدرعة صوف وخفّي راع.
- أخرج ابن عساكر عن عبد الجبار بن عبد الله بن سليمان قال: أقبل عيسى

ابن مريم على أصحابه ليلة رفع فقال: لا تأكلوا بكتاب الله أجرًا، فإنكم إن لم تفعلوا أقعدكم الله على منابر الحجر منها خير من الدنيا وما فيها. قال عبد الجبار: وهي المقاعد التي ذكر الله تعالى في القرءان ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة القمر] ورفع عليه السلام.

- أخرج الفريابي وسعيد بن منصور ومسدد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: خروج عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة.
- أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن البصري في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: نزول عيسى.
- أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: نزول عيسى.
- أخرج ابن جرير من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: نزول عيسى عليه السلام.
- وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله تعالى ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ قال: قد كلمهم عيسى عليه السلام في المهد، وسيكلمهم إذا أقبل الدجال وهو يومئذ كهل.
- وأخرج ابن المنذر عن وهب بن منبه في أثر طويل جاء فيه: وظنوا -أي اليهود- أنهم قد قتلوا عيسى وصلبوه، فظنت النصارى مثل ذلك، ورفع الله عيسى من يومه ذلك.
- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: تخرج الحبشة بعد نزول عيسى عليه السلام فيَبعَثُ عيسى طائفةً فيهزمون. أخرجه نعيم بن حماد في كتاب الفتن كما في عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني، وأخرجه البرزنجي في الإشاعة في أشراط الساعة مفصلًا.

- عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة المائدة]. يقول: عبيدك قد استوجبوا العذاب بمقالتهم، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي من تركت منهم ومددت في عمره حتى أهبط من السماء إلى الأرض وأقتل الدجال فنزلوا عن مقالتهم ووحدوك وأقروا أنا عبيد ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ حيث رجعوا عن مقالتهم ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ كما في الدر المنثور. يغفر لهم بدخولهم في الإسلام.

ذكر نصوص فقهاء الأمة وعلماء الإسلام المصرحة بنزول عيسى عليه السلام

جاء في الموطأ ما نصه: ما جاء في صفة عيسى ابن مريم والدجال مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **«أراني الليلة عند الكعبة فرأيت رجلًا ءادم كأحسن ما أنت راءٍ من أُدْمِ الرجال له لِمَّة كأحسنِ ما أنت راءٍ من اللِّمَم قد رَجَّلَها فهي تقطر ماء متكئًا على رجلين أو على عواتق رجلين يطوف بالكعبة فسألت: من هذا؟ قيل: هذا المسيح ابن مريم، ثم إذا أنا برجل جَعْدٍ قَطَطٍ أعورِ العين اليمنى كأنها عنبة طافية، فسألت: من هذا؟ فقيل لي: هذا المسيح الدجال»**.

قال الإمام الفقيه الحافظ أبو الوليد الباجي في المنتقى أثناء كلامه على هذا الحديث ما نصه: وفي العتبية عن مالك قال: بينما الناس قيام يستمعون لإقامة الصلاة فتغشاهم غمامة فإذا عيسى ابن مريم قد نزل اهـ. ونقله العلامة الأبي أيضًا في شرح مسلم، وقال الإمام الفقيه الحافظ أبو جعفر الطحاوي في كتابه اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن ما نصه: ونؤمن بخروج الدجال الأعور اللعين ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء اهـ.

قال الأستاذ الكوثري: وقد تلقى الطحاوي علوم هؤلاء في الاعتقاد والعمل عن سليمان بن شعيب الكيساني وبكار بن أبي قتيبة وابن أبي عمران وأبي خازم فالأول عن أبيه عن محمد عن أبي يوسف وأبي حنيفة، والثاني عن خلال بن يحيى عن زفر وأبي يوسف عن أبي حنيفة، والثالث عن ابن سماعة وبشر بن الوليد فالأول عن محمد وأبي يوسف، والثاني عن أبي يوسف والرابع عن عيسى بن أبان عن محمد اهـ.

وروى ابن أبي يعلى في الطبقات والخلال وابن الجوزي في المناقب عن عبدوس بن مالك أبي محمد العطار قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل يقول: أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم، إلى أن قال: والإيمان بأن المسيح الدجال خارج مكتوب بين عينيه كافر، والأحاديث التي جاءت فيه، والإيمان بأن ذلك كائن وأن عيسى ابن مريم عليه السلام ينزل فيقتله بباب لُدّ في فلسطين.

وقال أيضًا في الرسالة التي كتبها إلى مسدد في بيان سنة النبي ﷺ ما نصه: والدجال خارج في هذه الأمة لا محالة وينزل عيسى ابن مريم إلى الأرض فيقتله بباب لُدّ اهـ. وانظر بقيتها في مناقب أحمد لابن الجوزي.

وقال إمام أهل السنة أبو الحسن الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين (ونسخه الموجودة اليوم غير معتمدة) واختلاف المصلين عند ذكر ما عليه أهل السُّـنّة والجماعة: ويصدقون بخروج الدجال، وأن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام يقتله.

وقال الحافظ أبو الحسين الآبري في مناقب الشافعي في الكلام على إبطال حديث «لا مهدي إلا عيسى ابن مريم» وإثبات أنّ المهدي غير عيسى ما نصه: وقد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى في المهدي أنه من أهل بيته، وأنه يملأ الأرض عدلًا، وأن عيسى عليه الصلاة والسلام يخرج فيساعده

على قتل الدجال، وأنه يؤم هذه الأمة وعيسى خلفه في طول من قصته وأمره اهـ. نقله الإمام القرطبي في التذكرة، والحافظ ابن حجر في الفتح، وحسناه.

وقال القاضي عياض في شرح مسلم ما نصه: نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال حق، وصحيح عند أهل السنة، للأحاديث الصحيحة في ذلك، وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله، فوجب إثباته.

وأنكر ذلك بعض المعتزلة والجهمية ومن وافقهم، وزعموا أن هذه الأحاديث مردودة بقوله تعالى ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وبقوله ﷺ «**لا نبيَّ بعدي**» وبإجماع المسلمين أنه لا نبي بعد نبينا محمد ﷺ وأن شريعته مؤبدة إلى يوم القيامة، لا تنسخ. وهذا استدلال فاسد، لأنه ليس المراد بنزول عيسى عليه السلام أنه ينزل نبيًا بشرع ينسخ شرعنا، ولا في هذه الأحاديث ولا في غيرها شيء من هذا، بل صحت هذه الأحاديث هنا وما سبق في كتاب الإيمان وغيرها أنه ينزل حكمًا مقسطًا بحكم شرعنا ويحيي من أمور شرعنا ما هجره الناس اهـ. نقله الإمام النووي في شرح مسلم ووافقه عليه.

وقد ورد عن المغيرة بن شعبة في الجمع بين أحاديث النزول وءاية ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ غير ما سلكه هؤلاء المبتدعة، فروى الطبراني من طريق مجالد بن سعيد عن الشعبي قال: قال رجل عند المغيرة بن شعبة: صلى الله على محمد خاتم الأنبياء لا نبي بعده. فقال المغيرة: حسبك أن تقول خاتم الأنبياء، فإنا كنا نحدث أن عيسى ابن مريم خارج، فإن كان خارجًا فقد كان قبله وبعده وهذا الأثر ضعيف الإسناد لا يصح، وقد كان المغيرة ذكيًا بالغًا حد الدهاء فلا يخفى عليه أن نزول عيسى تابعًا لنبينا ﷺ وعاملًا بشريعته لا ينافي حديث «**لا نبي بعدي**» كما مر في كلام عياض ءانفًا والقاديانية ينسبون الأثر المذكور إلى عائشة كذبًا عليها، ويحذفون منه خروج عيسى عليه السلام ليتسنى لهم أن يقولوا إن قوله تعالى ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ - بفتح التاء - لا يدل على انقطاع النبوة ناسين قراءة خاتِم

- بكسر التاء - وهي تعين الآخرية كما لا يخفى.

وقال الشهرستاني في الملل والنحل في الكلام على اختلاف النصارى في عيسى عليه السلام ما نصه: ولهم في النزول خلاف، فمنهم من يقول: ينزل قبل يوم القيامة كما قال أهل الإسلام اهـ.

وقال الإمام القرطبي في شرح مسلم - وهو شيخ القرطبي صاحب التفسير والتذكرة - في الكلام على حديث جبريل الطويل عند قوله «**فأخبرني عن أماراتها**» ما نصه: وهي - أي أمارات الساعة - تنقسم إلى معتاد كالمذكورات وكرفع العلم وظهور الجهل وكثرة الزنا وشرب الخمر، وغير معتاد كالدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج يأجوج ومأجوج، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها اهـ. نقله العلامة الأبي. وقال عقبه ما نصه: قال ابن رشد - يعني الجد - واتفقوا على أنه لا بد من ظهور هذه الخمسة - يعني الدجال وما بعده - واختلفوا في خمسة أخر: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، والدخان ونار تخرج من قعر عدن تروح معهم حيث راحوا، وتقيل معهم حيث قالوا زاد بعضهم وفتح قسطنطينية، وظهور المهدي اهـ.

ونقل الأبي أيضًا في شرح مسلم عن ابن رشد ما نصه: وفي العتبية كان أبو هريرة يلقى الفتى الشاب فيقول: «يا ابن أخي إنك عسى أن تلقى عيسى ابن مريم فأقرئه مني السلام» تحقيقًا لنزوله فما ذكر ابن حزم من الخلاف في نزوله لا يصح، وذكر الباجي حديثًا ضعيف السند أنه ينزل في عاشرة السبعين وتسعمائة ثم قال الأبي: قال ابن العربي: ويروى أنه يتزوج امرأة من بني ضبة اسمها راضية، ثم يموت ويصلي المسلمون عليه، ويدفن في روضة النبي وفيها موضع قبر يقال إنما بقي له.

فإن قلت: بم يعرف الناس أنه عيسى؟ قلت: بصفاته التي تضمنتها الأحاديث - أي من كونه ينزل من السماء عليه ممصرتان واضعًا يديه على أجنحة ملكين إلخ مما تقدم - ويصح أن يعرف بأن يتحدى على ذلك لا بإحياء الموتى وإبراء الأكمه

والأبرص، لأن تلك ءايات إرساله، وهو لا ينزل رسولًا لأهل الأرض.

وابن العربي: يروي أنه يصلي وراء المسلمين إبقاء لشريعة النبي ﷺ واتباعًا له وإخزاء للنصارى وإقامة للحجة عليهم. انتهى من شرح الأبي.

وقال الإمام ابن عطية في تفسيره ما نصه: وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسى في السماء حي، وأنه ينزل في ءاخر الزمان، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويقتل الدجال، ويفيض العدل، وتظهر به ملة محمد ﷺ، ويحج البيت ويعتمر اهـ. نقله العلامة أبو حيان في البحر المحيط.

وقال الحافظ أبو الفتح اليعمري المعروف بابن سيد الناس في عيون الأثر في الكلام على خبر إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه - بعد أن ذكر أن سلمان اجتمع في الشام برجل يجتاز من غيضة إلى غيضة، مرة في السنة، يعترضه في تلك المرة ذوو الأسقام ليدعو لهم فيشفون، وأن النبي ﷺ قال لسلمان عن هذا الرجل: إنه عيسى ابن مريم - ما نصه: قال السهيلي: وإن صح هذا الحديث فلا نكارة في متنه، فقد ذكر الطبري أن المسيح عليه السلام نزل بعدما رفع، وأمه وامرأة أخرى عند الجذع الذي فيه الصليب تبكيان، فكلمهما وأخبرهما أنه لم يقتل، وأن الله رفعه وأرسله إلى الحواريين ووجههم إلى البلاد. وإذا جاز أن ينزل مرة جاز أن ينزل مرارًا ولكن لا يعلم به أنه هو حتى ينزل النزول الظاهر فيكسر الصليب ويقتل الخنزير كما جاء في الصحيح اهـ.

وقال الحافظ السيوطي في كتاب إتمام الدراية لقراء النقاية ما نصه: ونعتقد أن نزول عيسى ابن مريم عليه السلام وقَتْلَه الدجال حق اهـ. ثم استدل في شرحه إتمام الدراية ببعض الأحاديث الواردة في ذلك، وقال العلامة السفاريني الحنبلي في منظومته الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية: [الرجز]

وما أتى في النص من أشراط ... فكله حق بلا شطاط

منها الإمام الخاتم الفصيح ... محمد المهدي والمسيح

وقال في شرحها المسمى لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية ما نصه: قد أجمعت الأمة على نزوله ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة، وإنما أنكر ذلك الفلاسفة والملاحدة ممن لا يعتد بخلافه وقد انعقد إجماع الأمة على أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية، وليس ينزل بشريعة مستقلة عند نزوله من السماء، وإن كانت نبوته قائمة به، وهو متصف بها اهـ.

وقال الشوكاني[1] في كتاب التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح: إن الأحاديث في نزوله عليه السلام كثيرة، منها تسعة وعشرون حديثًا ما بين صحيح وحسن وضعيف منجبر، ومنها ما هو مذكور في أحاديث الدجال؛ ومنها ما هو مذكور في أحاديث المنتظر، وتنضم إلى ذلك أيضًا الآثار الواردة عن الصحابة، فلها حكم الرفع إذ لا مجال للاجتهاد في ذلك اهـ.

ثم ذكرها كلها، وقال ما نصه: وجميع ما سقناه بلغ حد التواتر كما لا يخفى على من له فضل اطلاع اهـ. ونحوه في «الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة» للقنوجي.

وقال أستاذنا العلامة المحدث السيد محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله في كتابه نظم المتناثر من الحديث المتواتر ما نصه: وقد ذكروا أن نزوله ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، والأحاديث في نزوله كثيرة اهـ. ثم ذكر كلام ابن رشد والشوكاني وغيرهما في التصريح بالتواتر.

وممن نص على نزول عيسى عليه السلام من العلماء: الحافظ عبد الغني المقدسي في كتاب أشراط الساعة، والحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن كثير في تاريخه، والتقي السبكي في كتاب التعظيم والمنة، والدميري في حياة الحيوان، وابن حجر الهيثمي في فتاويه الحديثية والفقهية، والبرزنجي في الإشاعة لأشراط

---

(١) تنبيه الشوكاني في هذا النقل وافق أهل السنة، لكنه ليس من العلماء المعتبرين فلا يُعتمد عليه ولا يؤخذ منه إلا ما وافق فيه الحق.

الساعة، وابن الحاج في حاشية المرشد المعين، ناقلًا فيه الاتفاق، والكشميري في إكفار الملحدين، والعلامة عبد الحي اللكنوي في مقدمة الفوائد البهية، وهو مجمع عليه كما تقدم في كلام غير واحد.

والخلاف الذي أشار إليه ابن حزم في مراتب الإجماع، إنما هو خلاف بعض المعتزلة والجهمية كما يستفاد من كلام عياض السابق، وهو خلاف ساقط، لأنه حدث بعد انعقاد إجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم وأهل السنة والحديث، فلهذا لم يعتدَّ العلماء به وحكوا الإجماع، وقال ابن رشد في ما نقلناه عنه: إن الخلاف الذي ذكره ابن حزم لا يصح - أي لا يعتبر به ولا يؤبه له - فلا راحة لصاحب الفتوى في هذا الخلاف ولا عذر له في اتباعه، وهو ملزم - إن أخذ به والتزمه - أن يكشف للناس عن دخيلة أمره، ويبين لهم أنه جهمي حتى يعلم المسلمون أنه من أتباع جهم بن صفوان الضال المبتدع الذي يقول عنه الذهبي: ما علمته روى شيئًا لكنه زرع شرًا عظيمًا اهـ.

حكم من أنكر نزول عيسى عليه السلام من السماء

واعلم أن من أنكر نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة فهو كافر كما في كتاب الإعلام بحكم عيسى عليه السلام للحافظ السيوطي، لأنه أنكر ما تواتر عن النبي ومنكر المتواتر كافر كما صرح به ابن دقيق العيد وابن حجر الهيتَميّ وأبو عبد الله محمد الطالب ابن الحاج وغيرهم بل هو مقرر في كتب الأصول.

بيان
استحالة أن يكون عيسى ابنًا لله أو هو الله عقلًا

إن الإنسان بفطرته يلجأ عند الشدائد إلى ذي قوة وسلطان، يطلب منه الحماية والأمن. ولا بد أن يكون الإلـٰه والخالق متصفًا بالقوة والجبروت. ولما تحقق ضعف عيسى عليه السلام وافتقاره إلى الطعام والمسكن والملبس والملجأ، وجواز المرض والتعب والإعياء والنعاس عليه ثبت بالبديهة أن عيسى عبد الله ورسوله. وليس حجّة على أنه إلـٰـه أن يكون وُلِد من أم من غير أب لأن ءادم عليه السلام ولد من غير أب وأم، وليس في أن يكون عيسى تكلم في المهد حجة أيضًا لأن غير عيسى تكلم في المهد، فكما أن كلام غيره في المهد لا يثبت أنه إلـٰـه فكذلك كلام عيسى في المهد لا يثبت بوجه من الوجوه أنه إلـٰه لأن كلامه تعالى ليس ككلام الخلق وقد مرّ بيان ذلك.

وإن كان على حسب زعم بعض الناس أن عيسى صُلب وعُذب ومات فما هذا الإلـٰه الذي يموت، أو إن كان ابنًا للإلـٰـه فلِمَ لم ينقذه أبوه؟!!

وإذا أتى للناس مخلِّصًا على زعمهم فقُتِل، وبقتله وصلبه كان الخلاص للبشرية، فلِمَ لم يظهر أي أثر للخلاص، بل على العكس نرى أن المظالم والتعديات

قد كثرت وانتشرت وإذا كان ابنًا لله كما يزعمون، هل يحتاج الإلـٰه لولد ليفتديه ليخلِّص البشرية؟ وهل الإلـٰه عاجز عن أن يخلص البشرية من المفاسد والمظالم من غير ولد؟ ثم ما هذا الإلـٰه الذي خرج من حيث خرج جميع الناس.

ثم لو قيل إن عيسى أتى مكفِّرًا لذنب كبير اقترفه ءادم بأكله من الشجرة فهل يقبل عاقل ما نُسب لآدم عليه السلام؟

والعقل يقرر بأن الأنبياء معصومون عن كبائر الذنوب والخسة والرذالة، لأن هذه الصفات تنافي الدعوة، ومعلوم أن الله أرسل الأنبياء مؤيدين بالمعجزات وبالحجج والبراهين، فهل تُقبل من شخص دعوة النبوة وقد اشتهر بأنه سارق وخائن وظالم؟!!

لقد أرادوا تعظيم شأن عيسى عليه السلام فكفروا، لأن هذا التعظيم الذي أرادوه أدّى إلى تنقيص بجلال الله وعظمته، ومعلوم أن لله في خلقه حكم ولا بد في جعله للناس ذرية وأولادًا من حكمة، ألا ترون كم هي حاجة الرجل للأولاد، لضمان مستقبل يجهله، وخوفٍ من عجز يدركه، وشيخوخة تصيبه، فما هي حاجة الله للولد. قال الإمام الحجة فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير: إن الولد إنما يُتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك مُحال، كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى مُحالًا اهـ.

ومعلوم أيضًا أن أهل الجنة في الجنة لا يلدون لأن الله تعالى لم يحوجهم إلى الولد لأنه في الجنة حياة لذة وراحة، لا شقاء وتعب، ولا هَمّ ولا غمّ فيها. فإذا كان الله لم يحوج أهل الجنة للأولاد فهل ربنا عزّ وجلّ يحتاج إلى ولد؟!!

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾

[سورة المائدة]

هذه الآية فيها تحذير من قول اليهود والنصارى «نحن أبناء الله» ومن قول كل من نسب لله الولد ولو كان مازحًا أو غاضبًا أو عن غير اعتقاد أو يزعم معنى آخر للكلمة أو قال «أردتُ معنى مجازيًا»، لأن قولهم هذا كفر لا تأويل له، ولا اعتبار لقول بعض هؤلاء «نحن لا نقصد البنوّة بمعنى الولادة إنما نقصدُ العناية والعطفَ والرحمةَ»، فقد ذكر المفسّر ابن عطية الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٦ هـ عند شرحه للآية ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ في تفسيره «المحرر الوجيز» أن إطلاقَ نسبةِ البنوة إلى الله ولو قُصد به الحنان كفرٌ، فقال ما نصه[1]: «والبنوة في قولهم هذا بنوة الحنان والرأفة، وذكروا أن الله تعالى أوحى إلى إسرائيل أن أول أولادك بكري فضلّوا بذلك» اهـ. والضلال هنا هو الكفر، كما نقل القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرءان»[2] عنه - أي ابن عطية - في تفسير سورة التوبة آية ٣٠، ونص عبارته: «قال ابن عطية: ويقال إن بعضهم يعتقدها بنوة حنو ورحمة وهذا المعنى أيضا لا يحل أن تطلق البنوة عليه وهو كفر» اهـ. وقد ذكر القرافي المالكي في كتابه «الفروق» وبهامشه «أدرار الشروق على أنواء الفروق لابن الشاط»[3] ناقلا عن القاضي عياض المالكي الإجماع على تكفير من نسب الأبوة والبنوة إلى الله تعالى.

فالحذر مما قاله المجسم ابن تيمية الحراني في كتابه المسمى «بيان تلبيس

---

(١) المحرر الوجيز (دار الكتب العلمية، الجزء الثاني ص١٧٢).

(٢) الجامع لأحكام القرءان (المجلد الثامن ص١١٧).

(٣) أدرار الشروق على أنواء الفروق لابن الشاط (المكتبة العصرية ٢٠٠٣ الجزء الأول ص١١٧).

الجهمية»[1]، وفي كتابه المسمى «شرح حديث النزول»[2]، يقول: «وفي الإنجيل (وفي حاشيته قال المعلق وهو محمد بن عبد الرحمـن الخميس المشبه المجسم الوهابي: في الإنجيل الصحيح. والعياذ بالله من هذا الكفر) أن المسيح قال: لا تحلفوا بالسماء فإنها كرسي الله، وقال للحواريين: إن أنتم غفرتم للناس فإن أباكم الذي في السماء يغفر لكم كلكم، انظروا إلى طير السماء: فإنهن لا يزرعن ولا يحصُدن ولا يجمعن في الأهواء، وأبوكم الذي في السماء هو الذي يرزقهم، أفلستم أفضل منهن؟ ومثل هذا من الشواهد كثير يطول به الكتاب» اهـ.

وقد حاول بعض المعلقين من الوهابية وهو يحيى بن محمد الهنيدي أن يؤول كفر ابن تيمية وذلك في تعليقه على كتاب ابن تيمية المسمى «بيان تلبيس الجهمية» فإنه قال: «إن معنى أباكم أي ربكم الله». وهذا مسلك في التعصب لا غير بل ينطبق عليه ما قاله ابن عطية إنه كفر صريح، ومن العجب أن الوهابية تُكفّر المتأولين فكيف لجأوا هنا إلى التأويل البعيد غير الموافق لقواعد الدين واللغة العربية وما ذاك إلا ليسوغوا لشيخهم قول الضلال وهيهات أن يسوغوا، بل ثبت عند كل محقق أنهم مذبذبون يؤلفون دينًا على حسب أهوائهم لتأييد معتقداتهم الكفرية، فانظر كيف لا يقبلون أن نؤوِّل الآيات المتشابهات ويقولون «التأويل تعطيل» وكيف أجازوا لأنفسهم أن يؤولوا كفر شيخهم وإمامهم الصريح ابن تيمية الحراني؟! فيا لفضيحتهم ويا لتناقضهم ويا لسخافتهم.

ومثله أحمد دِيْدات في مناظرته المسماة «هل المسيح ابن الله» في اسكندنافيا في تسجيل له بالصوت والصورة من إنتاج (المغامسي للإنتاج والتوزيع - المدينة المنورة)، يقول: «مجازًا نحن جميعًا أبناء الله وعياله، الطيبون منا والأشرار، وعلى هذا الأساس يمكن أن يكون عيسى أقربنا في البنوة لأنه أكثرنا إخلاصًا لله أكثر

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (المجلد الرابع ص٤٨٩ - ٤٩٠).
(٢) شرح حديث النزول (دار العاصمة الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ص٢١٧).

منا، فمن هذه الناحية يمكن أن ننظر له ابنًا لله» اهـ. ولحقه علي جمعة الذي يقول في كتابه المسمى «الدين والحياة»[1] حين سُئِلَ: «هل يجوز أن أقول أنا ابن الله؟ فقال: لأن السيد المسيح كان كثيرا ما يستخدم هذه الكلمة فكان يقول (قال أبوكم الذي في السماء، إن أبانا الذي في السماء)، ثم قال والأبوة هنا بمعنى الرعاية والعناية والرزق والكلأ، فهي من الألفاظ التي حُرفت عن معانيها الأصلية فضلّوا بها، وقالت اليهود ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ ثم قال فهذه الكلمة لا بأس بها بمعنى عيال الله أو خلق من خلقه، لكن بعد ذلك نستدرج إلى البنوة الحقيقية والأبوة الحقيقية فهذا كلام لا يقول به إلا جاهل» اهـ. والعياذ بالله تعالى.

ومن الضلال ما في الكتاب المسمى «الكتاب المدرسي الوطني، القراءة العربية التعليم الأساسي السنة الثامنة - الجمهورية اللبنانية» يقولون[2]: «وأُبصِرِ الله على هيْئةِ نخلة، كتاجِ نخلة يَبْيَضُّ في الظلام، أُحِسُّهُ يقول: يا بني» اهـ.

وفي مجلة أتباع رجب ديب المسمّاة «الأحباب» يقولون[3]: «وإن معنى البنوة والأبوة الواردة في الأناجيل تتطابق مع معنى الإيمان بالله ومحبته» ثم قالوا: «أي إن كل مؤمن بالله عز وجل يُدعى ابنًا لله أي مؤمنًا به محبًا له» ثم قالوا «أي إن كل صانع للسلام بين البشر في العالم أجمع يدعى ابنًا لله أي مؤمنًا به محبًا له» اهـ. وهذا أخذوه من شيخهم رجب ديب الذي قال في شريط بصوته: «ليس عيسى وحده ابن الله، بل كلنا أبناء الله» اهـ.

وليُحذَر مما دُسَّ على محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السَّنوسي التلمساني الحسني المتوفى سنة ٨٩٥هـ في كتاب «حواش على شرح الكبرى للسنوسي»[4]

---

(١) الدين والحياة (ص/ ١٧١).

(٢) الكتاب المدرسي الوطني، القراءة العربية التعليم الأساسي السنة الثامنة - الجمهورية اللبنانية (ص/ ٢٩).

(٣) الأحباب (العدد ٦ ص١٤).

(٤) حواش على شرح الكبرى للسنوسي (الطبعة الأولى ص٤٨٨).

في معرض الاستشهاد بهذا الكلام والإقرار له، يقولون إن في الزبور: «يقول الله لداود عليه السلام: سيولد لك ولد أُدعى له أبًا ويُدعى لي ابنًا»، ثم قالوا: «فولد داود الذي دُعِيَ ابنًا لله تعالى هو عيسى عليه السلام»، وفي كتابه المسمى «العقيدة الوسطى وشرحها» يقولون[1]: «إن في الإنجيل: أنا أطلب لكم إلى أبي حتى يمنحكم»، ويقولون[2]: «قوله: أبي معناه: ربي وإلهي»، ويقولون[3]: «ومعنى انطلاق عيسى عليه السلام إلى أبيه أي ربه»، وفيها[4] تكرار العبارة التي في الكتاب الأول، وفي «شرح العقيدة الكبرى المسماة عقيدة أهل التوحيد»[5] أيضًا فيها تكرار العبارة التي في الكتاب الأول.

ومن المعاصرين من حذا حذو هؤلاء الضالين منهم رئيس لجنة البحث العلمي في جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويتية وهو عبد الرحمـن عبد الخالق الذي تمادى في هذا الكفر وراح يدافع عنه ويؤوله، ففي بحثه الذي سماه «شهادة الإنجيل على أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» وهي من جزئين يقول فيها: «ألفاظ ابن الله التي جاءت في الأناجيل والكتب المقدسة عند النصارى من المتشابه الذي يجب رده إلى المحكم فإن هذه اللفظة «ابن الله» استخدمت في عيسى وفي أتباعه وفي كل مؤمن بالله غير كافر به»، وزاد في كفره أيضا فقال: «وهذه الكلمة تحتمل معنيين: بنوة الهداية والتشريف وهو ما يسمونه بالبنوة الروحية، والمعنى الثاني بنوة النسب والابن الذي هو قطعة من أبيه وبضعة منه» اهـ.

---

(١) العقيدة الوسطى وشرحها (دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ص٣٢٦).
(٢) العقيدة الوسطى وشرحها (ص/ ٣٢٧).
(٣) العقيدة الوسطى وشرحها (ص/ ٣٢٨).
(٤) العقيدة الوسطى وشرحها (ص/ ٣٢٩).
(٥) شرح العقيدة الكبرى المسماة عقيدة أهل التوحيد (دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ٤٢٦).

وهذا لم يقله مسلم من عامة المسلمين فضلا عن علمائهم، وهو ادعاء التأويل في لفظ صراح في الكفر وهو باطل غير مقبول، وعجيبة هذه الصفاقة من هذا الكاتب الذي انبرى يضيع عمره وأنفاسه في تشجيع الناس على الكفر والضلال وعلى قوله لم تبق كفرية من الكفريات إلا وتكون من المتشابهات، وهذا فتح لباب الكفر على مصراعيه للناس.

وكلامهم كفرٌ صريحٌ لا يقبلُ التأويلَ وهو قولهم «نحن أبناء الله من باب المجاز»، فإن هؤلاء وافقوا اليهود بقولهم هذا، لأن اليهودَ لما قالوا «نحن أبناءُ الله» ما قصدوا أن الله والدهم إنما قصدوا أن الله يعزهم، ومع ذلك الله تعالى كفرهم فنحن أيضًا نكفر هؤلاء عملا بحكم القرءان ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [سورة المائدة/ ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة التوبة].

وقال الله تعالى في الحديث القدسي الذي رواه البخاري في صحيحه، وابن حبان في صحيحه، والنسائي في سننه واللفظ للبخاري[1]: «كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إيّاي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته وأما شتمه إيّاي فقوله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد» اهـ.

وقال المفسر فخر الدين الرازي في كتابه «التفسير الكبير» في تفسير الآية

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ص٩٤٠ تحت رقم ٤٩٧٤ و٤٩٧٥ من طبعة دار الكتب العلمية سنة ١٤٢١هـ الطبعة الأولى، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان لمرتبه الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي المتوفى سنة ٧٣٩هـ ص٢٤٢ تحت رقم ٢٦٧ من طبعة دار الكتب العلمية المجلد الأول الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ والنسائي في سننه.

﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ ما نصه[1]: «معناه وأثبتوا له جزءًا وذلك الجزء هو عبد من عباده والحاصل أنهم أثبتوا لله ولدا» اهـ.

وقال الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ ما نصه[2]: «قوله (وأما شتمه إيّاي) إنما سمّاه شتما لما فيه من التنقيص» اهـ.

وقال الإمام الحافظ شيخ الإسلام الفقيه الشيخ عبد الله بن محمد بن يوسف الهرري المعروف بالحبشي رضي الله عنه ورحمه رحمة واسعة في كتابه «الشرح القويم في حلّ ألفاظ الصراط المستقيم» ما نصه[3]: وأما حديث: «الخلق كلهم عيال الله وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله» فليس صحيحا بل هو حديث ساقط شديد الضعف وبعض الناس يفهمونه على اللغة المحليّة فيقعون في الكفر، فإنهم يفهمون من كلمة (عيال) أبناء وليس المعنى كذلك، فإن عيال في لغة العرب معناها الناس الذين ينفق عليهم الشخص لو كانوا أعمامه وأخواله وزوجاته ووالديه بمعنى أنهم تحت نفقته ورعايته لكونهم محتاجين إليه ويكفيهم نفقاتهم، ولا يوجد في اللغة عيال بمعنى الأولاد. وهذه العبارة من جملة ما أخرجه الناس عن معناه الأصلي في اللغة إلى غير معناه، ولو صحّ هذا الحديث الذي مرّ ذكره لكان معناه (فقراء الله) كما قال المناوي عند شرح هذا الحديث الذي أورده السيوطي في الجامع الصغير. فمن ظنّ أنه يجوز أن يقال عن البشر أبناء الله أو أولاد الله بالمعنى المجازي أي أنه كافيهم بالرزق كفر، كما ذكر ابن عطية الأندلسي في تفسيره هذه الآية: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾ [سورة المائدة/ ١٨]. وأما قول بعض الصوفية (أرباب القلوب) أي أصحاب العقول المتنورة بالتقوى ليس معناه أن هؤلاء خالقو العقول، والقلوب هنا بمعنى العقول ويقع في بعض

(١) التفسير الكبير (المجلد الرابع عشر الجزء ٢٧ ص١٧٢ - ١٧٣ طبعة دار الكتب العلمية الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ).

(٢) المجلد الثامن ص١٨ من طبعة الدار المسمى الريّان للتراث الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ.

(٣) الشرح القويم في حلّ ألفاظ الصراط المستقيم (ص/ ٤٥ - ٤٦).

مؤلفات العلماء (عن الله) قول (رب الأرباب) يعنون أن الله مالك الملاك وهذا صحيح اهـ.

وقد قال المفسر المحدث إسماعيل بن محمد العجلوني في «كشف الخفاء» عن حديث «الخلق كلهم عيال الله» ما نصه[1]: «قال النووي في فتاويه: هو حديث ضعيف لأن فيه يوسف بن عطية ضعيف باتفاق الأئمة، ورواه الحافظ عبد العظيم المنذري في أربعينه عن أنس رفعه بلفظ «الخلق كلهم عيال الله فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله»، قال أبو عبد الله محمد السلمي في تخريجها «ومعنى عيال الله فقراء الله، فالخلق كلهم فقراء إلى الله، وهو الذي يعولهم» ثم قال «وقال ابن حجر في الفتاوى الحديثية: «حديث الخلق عيال الله وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله ورد من طرق كلها ضعيفة» اهـ.

---

(١) كشف الخفاء (الجزء الأول ص٤٥٧ - ٤٥٨ من طبعة دار الرسالة، الطبعة السادسة ١٤١٦هـ).

تبرئة المسيح ومريم عليهما السلام مما لا يليق بهما

١. مما يجب التحذير منه قول بعض السفهاء إن عيسى كان يعبد غير الله وهذا تكذيب لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء/ ٢٥] فعيسى وكل الأنبياء لا يعبدون إلا الله ومن كذب ذلك لا يكون من المسلمين.

٢. ويجب التحذير من قول بعضهم إن عيسى كان يشرب الخمر أو كان يشجع على شربها أو كان يقول لأمه أيتها المرأة زودينا بالخمر ويجب التحذير من قول بعضهم إن عيسى قال قليل من الخمر يفرح قلب المؤمن ويجب التحذير من قول بعضهم أن عيسى كان يحول الماء إلى خمر وكان يسقيه للناس، وشرب الخمر والاسترسال فيه يتلف العقل وهذا لا يشجع عليه الأنبياء ولم يحصل من نبي من الأنبياء أن شرب الخمر أو شجع على شربها.

٣. ويجب التحذير من قول بعضهم إن عيسى قال من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر لأنّ هذا فيه تشجيع على المعصية والأنبياء معصومون من ذلك.

٤. ويجب التحذير من قول بعضهم في قصة رجم المرأة الزانية أن عيسى قال من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر فتراجع الجميع وهذا فيه أن عيسى عليه السلام كان يدعو ويحرض على خلاف شرعه ويشجع على الرذيلة.

٥. ويجب التحذير من قول بعضهم أن عيسى قال للخنزير السلام عليك يا أخي والعياذ بالله من مسخ القلوب وسخافة العقول وهذا فيه استخفاف صريح بعيسى عليه الصلاة والسلام والاستخفاف بالأنبياء كفر.

٦. ويجب التحذير من قول بعض الكافرين إن عيسى ابن زنى، فقد أجمعت الأمة على أن أمهات الأنبياء وزوجات الأنبياء لا يزنين لأن في ذلك تضييعًا لأنساب الأنبياء ومستحيل أن يكون نبي من الأنبياء ابن زنى.

٧. ويجب التحذير من قول بعضهم بأن السيدة مريم زانية أو كانت تكشف عورتها أمام الناس ونسبتها إلى الزنى تكذيب لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة ءال عمران].

٨. ويجب التحذير من قول بعضهم أن عيسى ومريم كانا على دين اليهودية وهذا تكذيب لقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة ءال عمران].

٩. ويجب التحذير من قول بعضهم بأن عيسى عليه السلام يشجع الناس على ارتكاب الفواحش والزنى وأنه هو الذي يغفر لهم ذنوبهم وهذا تكذيب لقول الله سبحانه: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة ءال عمران].

١٠. ويجب التحذير من قول بعضهم أن عيسى مخلص البشرية من معصية ءادم وهذا تكذيب لقول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة البقرة] فالذي وقع فيه ءادم معصية صغيرة لا خسة ولا دناءة فيها وكان ذلك قبل النبوة لما كان في الجنة ثم تاب منها فورًا وتاب الله عليه كما في هذه الآية الكريمة.

١١. ويجب التحذير من قول بعضهم أن يوسف النجار اتَّهم السيدة مريم بالزنى أو أنه هو الذي زنى بها وهذا كذب وافتراء على يوسف النجار لأنه كان من الصالحين وكان موقنًا بصدق مريم وعفتها وطهارتها لأنها نشأت على التقوى والعلم وكان يعتقد فيها الصلاح والولاية فلا يتهمها بالفواحش والرذالات.

١٢. ويجب التحذير من قول بعضهم أنّ عيسى قتل وصلب وهذا تكذيب لقول الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [سورة النساء/ ١٥٧].

١٣. ويجب التحذير من قول بعضهم أن عيسى كان يقول عن الله إني ذاهب إلى

أبي وهذا تكذيب لقول الله تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [سورة الكهف/ ٥].

١٤. ويجب التحذير من قول بعضهم إن عيسى خلق من نفخة الملك ومني مريم والصحيح أن عيسى خلق في رحم مريم من أم دون أب والملك نفخ فيها روح عيسى من غير منيّها والله لا يعجزه شىء قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ [سورة ءال عمران].

خاتمة هذا المبحث

لقد أخبر النبي ﷺ - وهو الصادق المصدوق - أن عيسى ابن مريم عليهما السلام سينزل في ءاخر الزمان مصدقًا بسيدنا محمد على ملته فيقتل الدجال الأعور اللعين الذي يدعي الألوهية، وكذلك يقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويقاتل الكفار على الإسلام ولا يقبل منهم الجزية، وينتشر في زمنه الأمن والعدل، ويكثر المال حتى لا يقبله الناس، وفي وقته يخرج يأجوج ومأجوج، ويهلكهم الله بدعائه، ويمكث في الأرض ما شاء الله أن يمكث، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه، وقد تواتر هذا تواترًا لا شك فيه بحيث لا يصح أن ينكره إلا الجهلة الأغبياء كالقاديانية ومن نحا نحوهم لأنه نقل بطريق جمع عن جمع حتى استقر في كتب أهل السنة التي وصلت إلينا تواترًا بتلقي جيل عن جيل فقد رواه عن النبي ﷺ أبو هريرة وأبو سريحة حذيفة بن أسيد والنواس بن سمعان وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمرو بن العاص، ووائلة بن الأسقع وابن مسعود وحذيفة ابن اليمان ومجمع ابن جارية وعبد الله ابن مغفل وعائشة وسمرة بن جندب وأنس ابن مالك وأبو أمامة وعثمان بن أبي العاص وعمار بن ياسر وابن عباس وثوبان ونافع بن كيسان وكيسان بن عبد الله بن طارق وعمرو بن عوف ونافع بن عتبة وأبو برزة وعبد الرحمـٰن بن سمرة وأبو سعيد الخدري وأم سلمة وعمران بن حصين وأبو الدرداء وأوس بن أوس وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، ثم رواه عن هؤلاء سعيد بن المسيب ونافع مولى أبي قتادة الأنصاري وعطاء بن ميناء وحنظلة بن علي الأسلمي وعبد الرحمـٰن بن ءادم وسعيد بن ميناء وصالح مولى أبي هريرة ومطير الهلالي وكليب الجرمي وأبو الطفيل - وهو صحابي صغير - والربيع بن عميلة وجبير بن نفير ويعقوب بن عاصم الثقفي وأبو الزبير وعبد الله بن يزيد وأبو نضرة وعمرو بن عبد الله الحضرمي ومؤثر بن عفازة وربعي ابن حراش وأبو صالح وأبو قلابة وعلقمة وأبو يحيى مولى ابن عفراء وعبد الأعلى

ابن عدي البهراني وأيوب بن نافع بن كيسان ونافع بن كيسان بن عبد الله بن طارق وعبد الله بن عمرو بن عوف والحسن البصري وعروة بن رويم وطاوس وأبو عبدالرحمٰن الحبلي وغيرهم من التابعين، ثم رواه عن هؤلاء الزهري والمقبري وقتادة وسليم بن حيان وهشام بن عروة وموسى بن مطير وعاصم ابن كليب وفرات القزم وعبد الرحمٰن بن جبير بن نفير والنعمان بن سالم وابن جريج وابن ليلى وعبد الله بن ثعلبة الأنصاري وعلي بن زيد بن جدعان ويحيى بن أبي عمرو الشيباني وجبلة بن سحيم وأبو حازم الأشجعي والحضرمي بن لاحق وأيوب وإبراهيم وسعيد بن خيثم ومحمد بن علي بن عبد الله بن عباس ولقمان ابن عامر الوصابي وعبد الرحمٰن بن أيوب وربيعة بن ربيعة وكثير بن عبد الله وعمرو بن سفيان الثقفي والربيع وأبو رزين وعبد العزيز بن رفيع وعبد الرحمٰن ابن زياد الأفريقي وغيرهم، ثم رواه عن هؤلاء صالح بن كيسان وسفيان بن عيينة والليث بن سعد ويونس ومحمد بن أبي حفصة وابن أخي الزهري وابن أبي ذئب والأوزاعي وعبيد الله بن عمر وسفيان بن حسين وهمام ويحيى بن عروبة وسعيد بن أبي عروبة وهشام الدستوائي وكعب أبو عبد الله البصري، وعفان ابن مسلم وأبو داود الطيالسي صاحب المسند وصالح بن عمر ويحيى بن جابر الطائي قاضي حمص وشعبة وحجاج بن محمد ومعمر صاحب كتاب الجامع وأبو زرعة السيباني وحماد بن زيد وصدقة بن المنتصر والعوام بن حوشب وأبو مالك الأشجعي ويحيى بن أبي كثير ومغيرة والخليفة أبو جعفر المنصور ومحمد بن الوليد الزبيدي والوليد بن مسلم وإسماعيل بن أبي أويس وأبو جعفر وعاصم أحد أئمة القراء وغيرهم، ثم رواه عن هؤلاء جمع غفير لا يكاد يحصى منهم إبراهيم بن سعد الزهري وعلي بن المديني وقتيبة بن سعيد وابن بكير وعبد الرزاق صاحب المصنف وعثمان بن عمر وعمرو بن محمد العنقزي وروح ويزيد بن هارون وهدبة بن خالد وبشر بن معاذ وجعفر الصائغ ويونس بن محمد ومعاذ العنبري وغندر والوليد بن شجاع وهارون بن عبد الله وحجاج بن الشاعر وعبد الرحمٰن

المحاربي وإسماعيل بن رافع وسعيد بن هبيرة ومحمد بن إبراهيم العبدي وعمران ابن أبي عمران الصوفي وهشيم ومحمد بن بشار وخلف بن خليفة وسعيد بن سليمان الواسطي وشيبان بن عبد الرحمٰن والحسن بن موسى الأشيب وعباد بن منصور وإسماعيل بن عياش وعبيد الله بن عبد الصمد بن المهتدي وبقية بن الوليد وأبو النضر وهشام بن خالد وبهلول بن إسحق ومحمد بن جعفر الإمام والمثنى وهشام ابن عمار ومحمد بن الحسن بن الخليل ثم تلقاه أصحاب الكتب المؤلفة في السنة ودونوه في مؤلفاتهم على اختلاف أنواعها ودرجاتها فرواه من أصحاب المسانيد: أبو داود الطيالسي وإسحق بن راهويه وأحمد بن حنبل وعثمان بن أبي شيبة وأبو يعلى والبزار والديلمي وغيرهم ورواه من أصحاب الصحاح: البخاري ومسلم وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وأبو عوانة والإسماعيلي والضياء المقدسي وغيرهم ورواه من أصحاب الجوامع والمصنفات معمر وعبد الرزاق وأبو بكر بن أبي شيبة وغيرهم ورواه من أصحاب السنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وسعيد بن منصور والبيهقي وأبو عمرو الداني وغيرهم ورواه من أصحاب التفسير المأثور عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر وابن منده وغيرهم ورواه من أصحاب المعاجم الطبراني وغيره ورواه من أصحاب الأجزاء والغرائب والمعجزات، ومعاني الأخبار وطبقات الرجال والملاحم وغير ذلك أبو سعيد النقاش وابن أبي الدنيا والدارقطني وأبو الشيخ ابن حيان والطحاوي وأبو نعيم وابن عدي والثعلبي والخطيب البغدادي وابن النجار وابن عساكر ونعيم ابن حماد والترمذي الحكيم وغيرهم. ومما لا نزاع فيه أن العادة قاطعة باستحالة أن يتواطأ هذا الجمع العظيم - من الصحابة والتابعين وأتباعهم وحملة الحديث النبوي - على الكذب والخطأ.

خاتمة

وبعد الذي قدمناه وبيَّناه مما جاء في سيرة نبي الله عيسى المسيح وأمه السيدة مريم التقية النقيّة الصفية الولية الصديقة الرضية الوفية الهنية عليهما السلام وبيّنا أنهما كانا على الإسلام وحذرنا مما كذب وافتري عليهما نرجو الله تعالى أن ينتفع الناس بما قدمناه وأن يقف الإنسان عند الحق ويتبع أهله وأن لا يصدق كل ما يجده في الكتب أو يسمعه من الناس أو في الإذاعات وأن يعلم أن العلم إنما يؤخذ بالتلقي من أهله، حتى سير الأنبياء والأولياء لا يؤخذ من الجهلاء ولا من الكتب المحرفة المزورة إنما يؤخذ العلم من أفواه العلماء، ولا عذر لمن انتقص نبيًّا من الأنبياء فنسبه إلى الكفر والفسق والفجور والزنا وعظائم الأمور كما أنه لا عذر لمن شبه الله بخلقه فنسب له الحلول أو الاتحاد أو الزوجة أو الولد أو الأب أو الأم أو الأخ أو الأخت لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى/ ءاية ١١] فالحق أحق أن يُتّبع والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى ءاله وجميع إخوانه من النبيين والمرسلين وجميع عباد الله الصالحين.

فهرس المواضيع